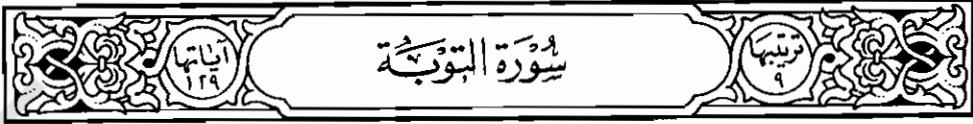


حديث «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث» قالوا فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب الله مسمى فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً ، والله أعلم .  
آخر تفسير سورة الأنفال . والله الحمد والمنة ، وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل .



بِرَاءةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي  
اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخاري : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وآخر سورة نزلت براءة ، وإنما لم يسئل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسمة في أولها في المصحف الإمام ، بل اقتدوا في ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه ، كما قال الترمذي : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يحيى بن سعيد ومحمد بن أبي جعفر وابن عدي وسهيل بن يوسف قالوا : حدثنا عوف بن أبي جميلة ، أخبرني يزيد الفارسي ، أخبرني ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتوها في السبع الطوال ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ عما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ؛ وكانت قصتها شبيهة بقصتها وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال ؛ وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه من طرق أخر عن عوف الأعرابي ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ؛ وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج ، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عاداتهم في ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادي في الناس ﴿براءة من الله ورسوله﴾ فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبه له كما سيأتي بيانه .

فقوله تعالى : ﴿براءة من الله ورسوله﴾ أي هذه براءة أي تبرؤ من الله ورسوله ﴿إلى الذين عاهدتم من المشركين \* فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ اختلف المفسرون هنا اختلافاً كثيراً ، فقال قائلون : هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر ، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان ، لقوله تعالى : ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ الآية ، ولما سيأتي في الحديث . ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعده إلى مدته وهذا أحسن الأقوال وأقواها ، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله ، وروي عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي وغير واحد . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين \* فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ الآية ، قال : حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون في الأرض حيث شاءوا وأجل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم فذلك خمسون ليلة ، فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام ، وأمر من كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضاً حتى يدخلوا في الإسلام .

وقال أبو معشر المدني : حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع ، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس ، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسبحون في الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة أجلمهم عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشراً من ربيع الآخر ، وقرأها عليهم في منازلهم وقال : لا يحجج بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان . وقال ابن أبي نجیح ؛ عن مجاهد «براءة من الله ورسوله ﷺ إلى أهل المهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد أو غيرهم ، فقفل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ فأراد رسول الله ﷺ الحج ثم قال : «إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحجج حتى لا يكون ذلك» فأرسل أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما فطافا بالناس في ذي الحجاز وبأمكنتهم التي كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كلها ، فأذنوا أصحاب المهد بأن يؤمنوا أربعة أشهر فهي الأشهر المتواليات عشرون من ذي الحجة إلى عشر يجلبون من ربيع الآخر ثم لا عهد لهم ، وأذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا ، وهكذا روي عن السدي وقتادة وقال الزهري : كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلخ المحرم ، وهذا القول غريب وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك ولهذا قال تعالى :

وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبَسِّمُوا فَهِيَ كَيْفَ لَكُمْ

وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾

يقول تعالى وإعلام «من الله ورسوله ﷺ» وتقدم وإنذار إلى الناس «يوم الحج الأكبر» وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المنسك وأظهرها وأكبرها جميعاً «أن الله بريء من المشركين ورسوله ﷺ» أي بريء منهم أيضاً ثم دعاهم إلى التوبة إليه ، فقال «فإن تبسّم» أي عما أنتم فيه من الشرك والضلال «فهو خير لكم» ، وإن توليتم «أي استمررتم على ما أنتم عليه فاعلموا أنكم غير معجزتي الله ﷻ بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته ، «وبشر الذين كفروا بعذاب أليم» أي في الدنيا بالخزي والنكال وفي الآخرة بالمقامع والأغلال ، قال البخاري رحمه الله : حدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا الليث ، حدثني عقيل عن ابن شهاب قال : أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحجج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . قال حميد : ثم أرفد النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة ؛ قال أبو هريرة فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة ، وأن لا يحجج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف عريان ؛ ورواه البخاري أيضاً : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري ، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى ألا يحجج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ويوم الحج الأكبر يوم النحر ، وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر ، فنذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام فلم يحجج عام حجة الوداع الذي حجج فيه رسول الله ﷺ مشرك ؛ هذا لفظ البخاري في كتاب الجهاد . وقال عبد الرزاق : عن معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله «براءة من الله ورسوله ﷺ» قال : لما كان النبي ﷺ زمن حنين اعتمر من الجعرانة ثم أمر أبا بكر على تلك الحجة ، قال معمر : قال الزهري وكان أبو هريرة يحدث أن أبا بكر أمر أبا هريرة أن يؤذن ببراءة في حجة أبي بكر ، قال أبو هريرة : ثم أتبعنا النبي ﷺ وعلياً وأمره أن يؤذن ببراءة وأبو بكر على الموسم كما هو أو قال على هيئته . وهذا السياق فيه غرابة من جهة أن أمير الحج كان سنة عمرة الجعرانة وإنما هو عتاب بن الأسيد فأما أبو بكر وإنما كان أميراً سنة تسع .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن مغيرة عن الشعبي عن محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال : كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال : ما كنتم تتنادون ؟ . قال : كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر ، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله ، ولا يحجج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك ، قال فكنت أنادي حتى صحل صوتي ؛ وقال الشعبي : حدثني محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال : كنت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين بعثه النبي ﷺ ينادي فكان إذا صحل ناديت فقلت : بأي شيء كنتم تتنادون ؟ قال بأربع ؛ لا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فعهدته إلى مدته ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يحجج بعد عامنا هذا مشرك . رواه ابن جرير من غير وجه عن الشعبي ، ورواه شعبة عن مغيرة عن الشعبي ، إلا أنه

قال : ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى أربعة أشهر وذكر تمام الحديث . قال ابن جرير : وأخشى أن يكون وهماً من بعض نقلته لأن الأخبار متضاربة في الأجل بخلافه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد عن سماك عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه ببراءة مع أبي بكر فلما بلغ ذا الحليفة قال «لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي» فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورواه الترمذي في التفسير : عن بندار عن عفان وعبد الصمد كلاهما عن حماد بن سلمة ، ثم قال حسن غريب من حديث أنس رضي الله عنه ؛ وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا محمد بن سليمان ، حدثنا لوين ، حدثنا محمد بن جابر عن سماك عن حنش عن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت عشر آيات من براءة علي النبي ﷺ دعا النبي ﷺ أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني فقال «أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب إلى أهل مكة فاقرأه عليهم» فلحقته بالحقفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال ؛ يا رسول الله ؛ نزل في شيء ؟ فقال «لا ولكن جبريل جاءني فقال : لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» هذا إسناد فيه ضعف ، وليس المراد أن أبا بكر رضي الله عنه رجع من فوره بل بعد قضائه للمناسك التي أمره عليها رسول الله ﷺ كما جاء مبيناً في الرواية الأخرى .

وقد عبد الله أيضاً : حدثني أبو بكر ، حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط بن نصر عن سماك عن حنش عن علي رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ حين بعثه ببراءة قال : يا نبي الله إني لست باللسن ولا بالخطيب قال «لا بد لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت» قال : فإن كان ولا بد فسأذهب أنا ، قال «إنطلق فإن الله يشيت لسانك ويهدي قلبك» قال : ثم وضع يده على فيه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع عن رجل من همدان ، سألنا علياً بأي شيء بعثت ؟ يعني يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحج ، قال : بعثت بأربع : لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدته ، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا ؛ ورواه الترمذي عن قلابة عن سفيان بن عيينة وقال حسن صحيح كذا قال ، ورواه شعبة عن أبي إسحاق فقال : زيد بن أثل وهم فيه ، ورواه الثوري عن أبي إسحاق عن بعض أصحابه عن علي رضي الله عنه . وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو أسامة عن زكريا عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع عن علي قال : بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت براءة بأربع : أن لا يطوف بالبيت عريان ، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ثم رواه ابن جرير عن محمد بن عبد الأعلى عن ابن ثور عن معمر عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي قال : أمرت بأربع فذكره ، وقال إسرائيل عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع قال : نزلت براءة فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر ثم أرسل علياً فأخذها ، فلما رجع أبو بكر قال : نزل في شيء ؟ قال «لا ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي» فانطلق إلى أهل مكة فقام فيهم بأربع لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته ؛ وقال محمد بن إسحاق عن حكيم بن عباد بن حنيفة عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال : لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر ليقدم الحج للناس فقبل يا رسول الله : لو بعثت إلى أبي بكر ؟ فقال «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي» ثم دعا علياً فقال «أذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ - فهو له إلى مدته» فخرج علي رضي الله عنه على ناقه رسول الله ﷺ العشاء حتى أدرك أبا بكر في الطريق فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ؟ فقال بل مأمور ، ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عندها في الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن بالناس بالذي أمره رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته ، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطوف بالبيت عريان ، ثم قدما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، أخبرنا أبو زرعة وعبد الله بن راشد ، أخبرنا حيوة بن شريح ، أخبرنا ابن صخر أنه سمع أبا معاوية البجلي من أهل الكوفة يقول : سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول : سألت علياً عن يوم الحج الأكبر فقال : إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قحافة يقيم للناس الحج وبعثني معه بأربعين آية من براءة حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة ، فلما قضى خطبته التفت إلي فقال قم يا علي فأد رسالة رسول الله

ﷺ ، فمقت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة ، ثم صدرنا فأتينا منى فرميت الجمرة ونحرت البدنة ثم حلقت رأسي وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا كلهم حضروا خطبة أبي بكر يوم عرفة فطفت أنتع بها الفساطيط أقرأها عليهم فمن ثم أخال حسبتم أنه يوم النحر ألا وهو يوم عرفة ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحاق سألت أبا جحيفة عن يوم الحج الأكبر قال : يوم عرفة ، فقلت : أمن عندك أم من أصحاب محمد ﷺ ؟ قال : كل في ذلك ، وقال عبد الرزاق أيضاً : عن ابن جريج عن عطاء قال : يوم الحج الأكبر يوم عرفة . وقال عمر بن الوليد السهمي : حدثنا شهاب بن عباد البصري عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : هذا يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد . قال : فحججت بعد أبي فأتيت المدينة فسألت عن أفضل أهلها فقالوا : سعيد بن المسيب فأتيته فقلت : إني سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا سعيد بن المسيب فأخبرني عن صوم يوم عرفة ، فقال : أخبرك عن من هو أفضل مني مائة ضعف عمر أو ابن عمر ، كان ينهى عن صومه ويقول هو يوم الحج الأكبر ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وهكذا روي عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاووس أنهم قالوا : يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر .

وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جريج ، أخبرت عن محمد بن قيس عن ابن مخزوم أن رسول الله ﷺ خطب يوم عرفة فقال «هذا يوم الحج الأكبر» وروي من وجه آخر : عن ابن جريج عن محمد بن قيس عن المسور بن مخزوم عن رسول الله ﷺ أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه ثم قال «أما بعد فإن هذا يوم الحج الأكبر» والقول الثاني أنه يوم النحر قال هشيم عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن علي رضي الله عنه قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر ، وقال إسحاق السبيعي عن الحارث الأعور سألت علياً رضي الله عنه يوم الحج الأكبر فقال هو يوم النحر ، وقال شعبة عن الحكم سمعت يحيى بن الجزار يحدث عن علي رضي الله عنه أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة فجاء رجل فأخذ بلجام دابته فسأله عن يوم الحج الأكبر فقال هو يومك هذا خل سبيلها ، وقال عبد الرزاق : عن سفيان عن شعبة عن عبد الملك بن عمير عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر ، وروي شعبة وغيره عن عبد الملك بن عمير به نحوه . وهكذا رواه هشيم وغيره عن الشيباني عن عبد الله بن أبي أوفى . وقال الأعمش عن عبد الله بن سنان قال : خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال : هذا يوم الأضحى وهذا يوم النحر وهذا يوم الحج الأكبر ، وقال حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : الحج الأكبر يوم النحر ، وكذا روي عن أبي جحيفة وسعيد بن جبيرة وعبد الله بن شداد بن الهاد ونافع بن جبيرة بن مطعم والشعبي وإبراهيم النخعي ومجاهد وعكرمة وأبي جعفر الباقر والزهري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا : يوم الحج الأكبر هو يوم النحر واختاره ابن جرير ، وقد تقدم الحديث عن أبي هريرة في صحيح البخاري أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمجي ، وقد ورد في ذلك أحاديث أخر كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثني سهل بن محمد الحسائي ، حدثنا أبو جابر الحرثي ، حدثنا هشام بن الغازي الجرشى عن نافع عن ابن عمر قال : وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال «هذا يوم الحج الأكبر» وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه : من حديث أبي جابر واسمه محمد بن عبد الملك به ، ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث الوليد بن مسلم عن هشام بن الغازي به ، ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز عن نافع به وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الحمدايي عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قام فينا رسول الله ﷺ على ناقه حمراء مخضمة فقال «أتدرون أي يوم يومكم هذا؟» قالوا : يوم النحر ، قال «صدقتم يوم الحج الأكبر» .

وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن المقدم ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا بن عون عن محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير له وأخذ الناس بخضامه أو زمامه ، فقال «أي يوم هذا؟» قال : فسكتنا حتى ظننا أن سيسميه سوى اسمه ، فقال «أليس هذا يوم الحج الأكبر؟» وهذا إسناد صحيح وأصله مخرج في الصحيح . وقال أبو الأحوص عن شبيب عن عمرو بن سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال «أي يوم هذا؟» فقالوا اليوم الحج الأكبر ، وعن سعيد بن المسيب أنه قال : يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر رواه ابن أبي حاتم ، وقال مجاهد أيضاً : يوم الحج الأكبر كلها ، وكذا قال أبو عبيد . قال سفيان : يوم الحج ويوم الجمل ويوم صفين أي أيامه كلها ، وقال سهل السراج : سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر؟ فقال : ما لكم وللحج الأكبر ذاك عام حج فيه أبو بكر الذي استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس رواه ابن أبي حاتم ، وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو أسامة عن ابن عوف ، سألت محمداً يعني ابن سيرين عن يوم الحج الأكبر ، فقال : كان يوماً وافق فيه حج رسول الله ﷺ وحج أهل الوبر .

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٩﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت ، فأجله أربعة أشهر يسبح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء ، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها ، وقد تقدمت الأحاديث ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهدته إلى مدته ، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظاهر على المسلمين أحداً أي بماليء عليهم من سواهم ، فهذا الذي يوفي له بدمته وعهده إلى مدته ولهذا حرص تعالى على الوفاء بذلك ، فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي الموفين بعهدهم .

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ههنا ما هي ؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى : ﴿منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ الآية ؛ قال أبو جعفر الباقر ، ولكن قال ابن جرير : آخر الأشهر الحرم في حقه المجرم ، وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وإليه ذهب الضحاك أيضاً وفيه نظر ، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه ، وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله ﴿فسبحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ ثم قال ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ أي إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمت عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها فحينئذ وجدتموهم فاقتلوهم لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر ، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة . وقوله ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ أي من الأرض وهذا عام ، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم ، بقوله ﴿ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾ وقوله ﴿وخذوهم﴾ أي وأسروهم إن شئتم قتلاً وإن شئتم أسراً ، وقوله ﴿واحضروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أي لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم ، بل اقتصدوهم بالحصار في معابدهم وحصونهم والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام ، ولهذا قال ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾ إن الله غفور رحيم . ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها ، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهي الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته ، ونبه بأعلاها على أدائها فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله عز وجل ، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متمعد إلى الفقراء والمحاويج وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين ، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة . وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال وأمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ويقوموا الصلاة ويؤتوا الزكاة؛ الحديث ؛ وقال أبو إسحاق : عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يترك فلا صلاة له ؛ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال : يرحم الله أبا بكر ما كان ألقه ! وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن إسحاق ، أنبأنا عبد الله بن المبارك ، أنبأنا حميد الطويل عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأمواهم إلا بحقها ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم» ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه ، من حديث عبد الله بن المبارك ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا عبد الأعلى بن واصل الأسدي ، حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به شيئاً فارقها والله عنه راض» قال : وقال أنس : هو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء ،

وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل ، قال الله تعالى ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ قال : توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ ثم قال في آية أخرى ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ورواه ابن مردويه ورواه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة له . حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أنبأنا حكام بن سلمة ، حدثنا أبو جعفر الرازي به سواء ، وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين وكل عقد وكل مدة ، وقال العوفي : عن ابن عباس في هذه الآية لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة ؛ وانسلاخ الأشهر الحرم ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر ، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر ؛ وقال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس في هذه الآية : قال أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام ، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق ، وأذهب الشرط الأول . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال : قال سفيان بن عيينة قال علي بن أبي طالب : بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف سيف في المشركين من العرب ، قال الله تعالى ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ هكذا رواه مختصراً ، وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب لقوله تعالى : ﴿فَاقْتُلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ والسيف الثالث قتال المنافقين في قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الآية ، والرابع قتال الباغين في قوله ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرِي فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَنْفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه فقال الضحاك والسدي هي منسوخة بقوله تعالى : ﴿فَإِذَا مَا بَعَدَ وَإِذَا فُتِنًا﴾ وقال قتادة بالعكس .

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْتَغْ لَهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين امرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿استجارك﴾ أي استامنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله أي القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله ﴿ثم ابغ له مأمنه﴾ أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عبادته . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال : إنسان يأتيك ليسمع ما تقول وما أنزل عليك فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه كلام الله وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء ، ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة ، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرمل من قريش ، منهم عروة بن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم ، واحداً بعد واحد يترددون في القضية بينه وبين المشركين فأرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر ، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك ، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم ، ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له أتشهد أن مسيلمة ، رسول الله ؟ قال نعم ، فقال رسول الله ﷺ ﴿ولولا أن الرمل لا تقتل لضربت عنقك﴾ وقد قبض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة ، وكان يقال له ابن النواحة ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة ، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له إنك الآن لست في رسالة وأمر به فضربت عنقه لا رحمه الله ولعنه . والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب ، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام ، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه ، لكن قال العلماء لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة ، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر ، وفيها بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن ستة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله .

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا

اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرتة إليهم أربعة أشهر ، ثم بعد ذلك السيف المرفف أين ثقفوا فقال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ أي أمان ويتروكون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿ إلا الذين عاهدتكم عند المسجد الحرام ﴾ يعني يوم الحديبية ، كما قال تعالى : ﴿ هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ حمله ﴾ الآية ؛ ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ أي مهما تمسكوا بما عاهدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿ فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون . استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قریش العهد ومالوا لحلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوه معهم في الحرم أيضاً فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة ، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء ، وكانوا قريباً من ألفين ، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء ، ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما ، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام ، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله .

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرْضَوْنَ كُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معادتهم والتبري منهم ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأدبلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة . قال علي بن أبي طلحة وعكرمة والوعوفي عن ابن عباس : الإل القرابة والذمة والعهد . وكذا قال الضحاك والسدي كما قال تميم بن مقبل :

أفسد الناس خلفو خلفوا قطعوا الإل وأعراق السرحم  
وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه :  
وجدناهم كاذباً لهم وذو الإل والعهد لا يكذب

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : لا يرقبون في مؤمن إلا ، قال : الإل الله ، وفي رواية لا يرقبون الله ولا غيره . وقال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علية عن سليمان عن أبي مجلز في قوله تعالى : ﴿ لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ﴾ مثل قوله جبريل ميكايل إسرافيل كأنه يقول لا يرقبون الله ، والقول الأول أظهر وأشهر وعليه الأكثر . وعن مجاهد أيضاً الإل العهد . وقال قتادة : الإل الحلف .

أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ

فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ

فِي الدِّينِ وَنَفَصِلُ الْأَيْدِي لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذمماً للمشركين وحثاً للمؤمنين على قتالهم ﴿ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿ فصدوا عن سبيله ﴾ أي منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ﴿ تقدم تفسيره وكذا الآية التي بعدها ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة ﴾ إلى آخرها تقدمت . وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثني ، حدثنا يحيى بن أبي بكر ، حدثنا أبو جعفر الرازي ، حدثنا الربيع بن أنس قال : سمعت أنس بن مالك يقول قال رسول الله ﷺ «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لا يشرك به ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض ، وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم ، قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ فإن تابوا ﴾ يقول فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿ وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ وقال في آية أخرى ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾ ثم قال البزار : آخر الحديث عندي والله أعلم فارقها وهو عنه راض وباقه عندي من كلام الربيع بن أنس .

وَأِنْ كَفَرُوا بَعْدَ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم أي عهودهم وموائيقهم ﴿وطعنوا في دينكم﴾ أي عابوه وانتقصوه ، ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بنقص ، ولهذا قال ﴿فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون﴾ أي يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال . وقد قال قتادة وغيره : أئمة الكفر . كآبي جهل وعتبة وشيبة وأميه بن خلف وعدد رجالا ؛ وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال : مر سعد بن أبي وقاص برجل من الخوارج فقال الخارجي : هذا من أئمة الكفر فقال سعد كذبت بي أنا قاتلت أئمة الكفر رواه ابن مردويه ، وقال الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة أنه قال ما قوتل أهل هذه الآية بعد . وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مثله ، والصحيح أن الآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم والله أعلم وقال الوليد بن مسلم : حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، أنه كان في عهد أبي بكر رضي الله عنه إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال إنكم ستجدون قوماً بمجوفة رؤوسهم ، فاضربوا معاهد الشيطان منهم بالسيف ، فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب إلي من أن أقتل سبعين من غيرهم وذلك بأن الله يقول ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ رواه ابن أبي حاتم .

أَلَا فَتَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوْا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوْكُمْ أَوْلَىٰ مَرَّةً

أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ فَتَلَوْهُمْ يَدْعَبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتَجْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ

عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ غِيظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِشَاءٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

وهذا أيضاً تبييخ وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة ، كما قال تعالى : ﴿وإذ يكره أن يخرجوا من مكة ليشركوا أو يقتلوا أو يخرجوا ويكرهون ويكره الله والله خير الماكرين﴾ وقال تعالى : ﴿يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ الآية ؛ وقال تعالى : ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها﴾ الآية ؛ وقوله ﴿وهم بدوكم أول مرة﴾ قيل المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر غيرهم ، فلما نجت وعلما بذلك استمروا على وجوههم ، طلباً للقتال بغياً وتكبراً كما تقدم بسط ذلك ، وقيل المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان والله الحمد والمنة . وقوله ﴿أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ يقول تعالى لا تخشوهم واخشون فانا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي فيبدي الأمر وما شئت كان وما لم أشأ لم يكن ، ثم قال تعالى عزيمه على المؤمنين وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده ﴿فقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم ، وقال مجاهد وعكرمة والسدي في هذه الآية ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ يعني خزاعة ، وأعاد الضمير في قوله ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ عليهم أيضاً . وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة مؤذن لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن مسلم بن يسار عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها وقال «يا عويش قولني اللهم رب النبي محمد اغفر ذنبي ، وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن» ساقه من طريق أبي أحمد الحاكم ، عن الباغندي عن هشام بن عمار حدثنا عبد الرحمن بن أبي الجوزاء عنه ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ أي من عباده ﴿والله عليم﴾ أي بما يصلح عباده ﴿حكيم﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشريعة فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وهو العادل الحاكم الذي لا يمور أبداً ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر ، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَرَبُّنَا عَلِيمٌ غَلُوبٌ ﴿١٦﴾

وَلِيَجْهَ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين لا نخبركم بأمر يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ولهذا قال ﴿ولمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ أَي بَطَانَةٍ ودخيلة بل هم في الظاهر والباطن على النصيح لله ولرسوله فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر كما قال الشاعر :

وما أدري إذا يممت أرضاً  
أريد الخير أيهما يلينني  
وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ وقال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ ؟﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية ؛ والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه ، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه لا إله إلا هو ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وأمضاه .

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ

أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرُوا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له ، ومن قرأ مسجد الله فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأسسه خليل الرحمن هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أي بحالهم وبقا لهم قال السدي : لو سألت النصراني ما دينك ؟ لقال نصراني ، ولو سألت اليهودي ما دينك ؟ لقال يهودي ، والصابيء لقال صابيء ، والمشرك لقال مشرك ﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾ أي بشركهم ﴿وفي النار هم خالدون﴾ وقال تعالى : ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد كما قال الإمام أحمد : حدثنا شريح ، حدثنا ابن وهب عن عمرو بن الحارث ، أن دراجاً أبا السمع حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان . قال الله تعالى : ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾» ورواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن وهب .

وقال عبد الرحمن بن حميد في مسنده : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا صالح المري عن ثابت البناني عن ميمون بن سبأ وجعفر بن زيد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ «إنما عمار المساجد هم أهل الله» ورواه الحافظ أبو بكر البزار : عن عبد الواحد بن غياث عن صالح بن بشير المري عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ «إنما عمار المساجد هم أهل الله» ثم قال : لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح ، وقد روى الدارقطني في الأفراد من طريق حكامه بنت عثمان بن دينار عن أبيها عن أخيه مالك بن دينار عن أنس مرفوعاً «إذا أراد الله بقوم عاهة نظر إلى أهل المساجد فصرف عنهم» ثم قال : غريب ، وروى الحافظ البهائي في المستقصى عن أبيه بسنده إلى أبي أمية الطرسوسي ، حدثنا منصور بن صفيح ، حدثنا صالح المري عن ثابت عن أنس مرفوعاً يقول الله : وعزتي وجلالي إني لأهم بأهل الأرض عذاباً فإذا نظرت إلى عمار بيوتي وإلى المتحابين في وإلى المستغفرين بالأسحار صرفت ذلك عنهم . ثم قال ابن عساکر : حديث غريب .

وقال الإمام لمحد : حدثنا روح ، حدثنا سعيد عن قتادة ، حدثنا العلاء بن زياد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال «إن الشيطان ذئب الإنسان ، كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية ، فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والجماعة والمسجد» وقال عبد الرزاق : عن معمر عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودي قال : أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون إن المساجد بيوت الله في الأرض وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها . وقال السعدي : عن حبيب بن أبي ثابت وعدي بن ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ولم يأت المسجد ويصلي فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله . قال الله تعالى : ﴿إنما يسمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ الآية ، وقد رواه ابن مردويه . وقد روي مرفوعاً من وجه آخر ، وله شواهد من وجوه أخر ليس هذا موضع

بسطها . وقوله ﴿واقام الصلاة﴾ أي التي هي أكبر عبادات البدن ﴿وأتى الزكاة﴾ أي التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق ، وقوله ﴿ولم يخش إلا الله﴾ أي ولم يخف إلا من الله تعالى ولم يخش سواه ﴿فعمى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ قال بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ يقول : من وحده الله وآمن باليوم الآخر يقول من آمن بما أنزل الله ﴿واقام الصلاة﴾ يعني الصلوات الخمس ﴿ولم يخش إلا الله﴾ يقول لم يعبد إلا الله ثم قال ﴿فعمى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ يقول تعالى : إن أولئك هم المفلحون كقوله لنبيه ﷺ ﴿عمى أن يعينك ربك مقاماً محموداً﴾ وهي الشفاعة ، وكل عسى في القرآن فهي واجبة ، وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله : وعسى من الله حق .

﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَنفُسَهُمْ سَبِيلَ اللَّهِ

بِأَمْرِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلِيكَ هُمُ الْقَائِرُونَ ﴿١٧﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا

غَيْرٌ مُّقِيمٌ ﴿١٨﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾

قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال : إن المشركين قالوا عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير من آمن وجاهد ، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعيابه ، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم ، فقال لأهل الحرم من المشركين ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ مستكبرين به سامراً مہجرون ﴿يعني أنهم يستكبرون بالحرم قال ﴿به سامراً﴾ كانوا يسمرون به ويهجون القرآن والنبي ﷺ فخير الله الإيمان والجهاد مع النبي ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به ، وإن كانوا يعمرون بيته ويمرحون به . قال الله تعالى : ﴿لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يعني الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسامهم الله ظالمين بشركهم فلن تغن عنهم العمارة شيئاً .

وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال : قد نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر بدر قال : لئن كنتم سبقتونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي ونفك العاني ، قال الله عز وجل ﴿أجعلتم سقاية الحاج - إلى قوله - والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يعني أن ذلك كله كان في الشرك ولا أقبل ما كان في الشرك ، وقال الضحاك بن مزاحم : أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر ويمروهم بالشرك ، فقال العباس : أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العاني ونحجب البيت ونسقي الحاج ، فأنزل الله ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ الآية .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا ابن عيينة عن إسماعيل عن الشعبي : قال : نزلت في علي والعباس رضي الله عنهما بما تكلموا في ذلك ، وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني ابن لهيعة عن أبي صخر قال : سمعت محمد بن كعب القرظي يقول افتخر طلحة بن شيبه من بني عبد الدار وعباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب فقال طلحة : أنا صاحب البيت معي مفتاحه ولو أشاء بت فيه . وقال العباس : أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بت في المسجد ، فقال علي رضي الله عنه : ما أدري ما تقولان لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد ، فأنزل الله عز وجل ﴿أجعلتم سقاية الحاج؟﴾ الآية كلها ، وهكذا قال السدي : إلا أنه قال : افتخر علي والعباس وشيبه بن عثمان وذكر نحوه ، وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن عمرو بن الحسن قال : نزلت في علي وعباس وعثمان وشيبه تكلموا في ذلك ، فقال العباس : ما أراني إلا تارك سقايتنا ، فقال رسول الله ﷺ وأقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيراً ورواه محمد بن ثور : عن معمر بن الحسن فذكر نحوه ، وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلا بد من ذكره هنا ، قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رجلاً قال : ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج . وقال آخر : ما أبالي أن أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام . وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلت . فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا على النبي ﷺ فسألناه .

فزلت ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام - إلى قوله - لا يستون عند الله﴾ .  
 [طريق أخرى] قال الوليد بن مسلم حدثني معاوية بن سلام عن جده أبي سلام الأسود عن النعمان بن بشير الأنصاري قال : كنت عند منير رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم : ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج . وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام . وقال آخر : بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتهم فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منير رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيها اختلفتم فيه . قال ففعل فأنزل الله عز وجل ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام - إلى قوله - والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ورواه مسلم في صحيحه وأبو داود وابن جرير وهذا لفظه ، وابن مردويه وابن أبي حاتم في تفسيرهم وابن حبان في صحيحه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٦﴾ قَدْ كَانَ عَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِجَارَةٍ تَحْشُونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ

فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٧﴾

أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء ، ونهى عن موالاتهم إن استحبوا أي اختاروا الكفر على الإيمان ، وتوعد على ذلك كقوله تعالى ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ الآية ؛ وروى الحافظ البيهقي من حديث عبد الله بن شاذب قال : جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الألهة يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله فأنزل الله فيه هذه الآية ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ الآية . ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من أثر أهله وقربته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها﴾ أي اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وبجارة تحشون كسادها ومسكن ترضونها﴾ أي تحبونها لطيبها وحسنها أي إن كانت هذه الأشياء ﴿أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا﴾ أي فانتظروا ماذا يعمل بكم من عقابه ونكاله بكم ولهذا قال ﴿حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن خزيمة عن زهرة بن معبد عن جده قال : كنا مع رسول الله ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه﴾ فقال عمر فانت الآن والله أحب إلي من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ ﴿والآن يا عمر انفرد بإخراجه البخاري فرواه عن يحيى بن سليمان عن ابن وهب عن حيوة بن شريح عن أبي عقيل زهرة بن معبد أنه سمع جده عبد الله بن هشام عن النبي ﷺ بهذا وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين﴾ وروى الإمام أحمد وأبو داود واللفظ له من حديث أبي عبد الرحمن الخراساني عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ﴿إذا تبايعتم بالميعة وأخذتم بأذنان البقر ورضيتم بالزروع وتركتم الجهاد سلب الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم﴾ وروى الإمام أحمد أيضاً عن يزيد بن هارون عن أبي حبيب عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك ، وهذا شاهد للذي قبله والله أعلم .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ

تَغْنِي عَنْكُمْ شَيْئاً وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ

عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

ثُمَّ تَوَلَّى اللَّهُ مِنَ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

قال ابن جريج عن مجاهد هذه أول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعددهم وبنهيم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو أكثر فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه كما سنينيه إن شاء الله تعالى مفصلاً ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده ويأمده وإن قل الجمع فكف من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي سمعت يونس يحدث عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «خير الصحابة أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ولن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة» وهكذا رواه أبو داود والترمذي ثم قال هذا حديث حسن غريب جداً لا يسنده أحد غير جرير بن حازم ، وإنما روى عن الزهري عن النبي ﷺ مرسلًا . وقد رواه ابن ماجه والبيهقي وغيره عن أكثم الجوزني عن رسول الله ﷺ بنحوه والله أعلم . وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة .

وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه وأن أميرهم مالك بن عوف بن النضر ، ومعه ثقيف بكاملها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل وناس من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاة والنعم وجاءوا بقضهم وقضيضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن فلما تواجهوا لم يشمر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم فعند ذلك ولي المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل ، وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحو العدو ، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن ، وأبوسفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول «إليّ عباد الله إليّ أنا رسول الله» ويقول في تلك الحال «أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب» وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون فمنهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبوسفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم ثم أمر ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه فجعل ينادي بهم يا أصحاب السمرة ، ويقول تارة يا أصحاب سورة البقرة ، فجعلوا يقولون يا لبيك يا لبيك ، وانعطف الناس فتراجموا إلى رسول الله ﷺ ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع ليس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ فلما اجتمعت شردمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من تراب بعد ما دعا ربه واستصره ، وقال «اللهم أنجز لي ما وعدتني» ثم رمى القوم بها فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما شغله عن القتال ثم انهزموا فاتبع المسلمون أبقاهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا يعلى بن عطاء عن عبيد الله بن سيار عن أبي همام عن أبي عبد الرحمن الفهري واسمه يزيد بن أسيد ويقال يزيد بن أنيس ويقال كرز قال : كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين فسرنا في يوم قاتظ شديد الحر فزلنا تحت ظلال الشجر فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه فقلت السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته حان الرواح ؟ فقال : «أجل» فقال «يا بلال» فثار من تحت سمرة كان ظلها ظل طائر فقال : لبيك وسعديك وأنا فداؤك فقال «أسرج لي فرسي» فأخرج سرجاً دفنانه من ليف ليس فيها أثر ولا بطر قال فأسرع فركب وركبنا فصافقناهم عشيتنا وليلتنا فتشامت الخيلان فولى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى : «ثم وليتم مدبرين» فقال رسول الله ﷺ «يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله» ثم قال «يا معشر المهاجرين أنا عبد الله ورسوله» قال ثم اقتحم عن فرسه فأخذ كفاً من تراب فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب به وجوههم وقال «شاهت الوجوه» فهزمهم الله تعالى . قال يعلى بن عطاء فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض كامرار الحديد على الطست الجديد ، وهكذا رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة من حديث أبي داود الطيالسي عن حماد بن سلمة به وقال محمد بن إسحاق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول

الله ﷺ إليه فأعدوا وتهيئوا في مضايق الوادي وأحناؤه وأقبل رسول الله ﷺ وأصحابه حتى انحط بهم الوادي في عمارة الصبح فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول «أيها الناس هلموا إلي أنا رسول الله ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله» فلا شيء وركبت الإبل بعضها بعضاً فلما رأى رسول الله ﷺ أمر الناس قال «يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة» فأجابوه ليبيك ، ليبيك ، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه في عنقه ويأخذ سيفه وقوسه ثم يؤم الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة فاستعرض الناس فاقتتلوا وكانت الدعوة أول ما كانت بالانصار ثم جعلت آخراً بالخزرج وكانوا صبراء عند الحرب وأشرف رسول الله ﷺ في ركابه فنظر إلى مجتلد القوم فقال «الآن همي الوطيس» قال فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ﷺ فقتل الله منهم من قتل وانهمز منهم ما انهمز وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبناءهم .

وفي الصحيحين من حديث شعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلاً قال له يا أبا عمارة أفررت عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال لكن رسول الله ﷺ لم يفر إن هوازن كانوا قوماً رماةً فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهمز الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول «أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب» قلت وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجري ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلاً عليه وعلماً منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله ويظهر دينه على سائر الأديان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله﴾ أي طمأنينته وثباته على رسوله ﴿وعلى المؤمنين﴾ أي الذين معه ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ وهم الملائكة كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثني الحسن بن عرفة قال حدثني المعتمر بن سليمان عن عوف هو ابن أبي جميلة الأعرابي قال سمعت عبد الرحمن مولى بن برثن حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال فلما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة ، قال فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ قال فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا شأهت الوجوه ارجعوا قال فانهمزنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثني محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا إسحاق بن الحسن الجرمي حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحارث بن حضيرة حدثنا القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه قال : قال ابن مسعود رضي الله عنه : كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار قدما ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة قال ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قدماً فحادث بغلته فمال عن السرج فقلت : ارتفع رفعلك الله . قال «ناولني كفاً من التراب» فناولته قال فضرب به وجوههم فامتلات أعينهم تراباً قال «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت : هم هناك قال «اهتف بهم» فهتفت بهم فجاءوا وسيوفهم بأيامهم كأنها الشهب وولى المشركون أديبارهم ، ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عفان بن نحوه ، وقال الوليد بن مسلم حدثني عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي عن عكرمة مولى ابن عباس عن شيبه بن عثمان قال رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عرى ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحزرة إياهما فقلت اليوم أدرك ثاري منه قال فذهبت لأجيبه عن يمينه فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج فقلت : عمه ولن يخذله قال فجثته عن يساره فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقلت : ابن عمه ولن يخذله فجثته من خلفه فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف إذ رفع لي شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق فخفت أن يمحشني فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقري فالتفت رسول الله ﷺ وقال «يا شيبه يا شيبه ادن مني ، اللهم أذهب عنه الشيطان» قال فرفعت إليه بصري وهو أحب إلي من سمعي وبصري فقال «يا شيبه قاتل الكفار» رواه البيهقي من حديث الوليد فذكره .

ثم روي من حديث أيوب بن جابر عن صدقة بن سعيد عن مصعب بن شيبه عن أبيه قال خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به ولكنني آبيت أن تظهر هوازن على قريش فقلت وأنا واقف معه يا رسول الله إني أرى خيلاً بلقا فقال «يا شيبه إنه لا يراها إلا كافر» فضرب بيده على صدري ثم قال «اللهم اهد شيبه» ثم ضربها الثانية ثم قال «اللهم اهد شيبه» ثم ضربها الثالثة ثم قال «اللهم اهد شيبه» قال فوالله ما رفع يده عن صدري في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إلي منه وذكر تمام الحديث في التقاء الناس وانهمز المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول

الله ﷺ حتى هزم الله تعالى المشركين ، قال محمد بن إسحاق حدثني أبي إسحاق بن يسار عن حدثه عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين والناس يقتتلون إذ نظرت إلى مثل الجباد الأسود يهوي من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم فإذا عمل مثبور قد ملأ الوادي فلم يكن إلا هزيمة القوم فما كنا نشك أنها الملائكة ، وقال سعيد بن السائب عن يسار عن أبيه قال سمعت يزيد بن عامر السوائي وكان شهد حنيناً مع المشركين ثم أسلم بعد فكننا نسأله عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطست فيطن فيقول كنا نجد في أجوافنا مثل هذا ، وقد تقدم له شاهد من حديث الفهري يزيد بن أسيد فإله أعلم ، وفي صحيح مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق أنبأنا معمر بن همام قال هذا ما حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال «نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم» ولهذا قال تعالى : ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾ وقوله ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾ قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة وذلك بعد الوقعة بقریب من عشرين يوماً فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختراروا سبيهم وكان ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة ، فرده عليهم وقسم الأموال بين الغانمين ونفل أناساً من الطلقاء لكي يتألف قلوبهم على الإسلام فأعطاهم مائة من الإبل وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النضري واستعمله على قومه كما كان فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله      في الناس كلهم بمثل محمد  
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى      ومتى يشأ يجبرك عما في الغد  
وإذا الكتيبة عسرت أنيابها      بسالمهري وضرب كل مهند  
فكانه ليث على أشباله      وسط المباءة خادر في مرصد

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا  
وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَالُوا الَّذِينَ  
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا  
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية وكان نزولها في سنة تسع ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً في صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذ وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يبيع بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . فاتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدرأ . وقال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى : ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة . وقد روي مرفوعاً من وجه آخر فقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا شريك عن الأشعث يعني ابن سوار عن الحسن عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ «لا يدخل مسجداً بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمهم» تفرد به الإمام أحمد مرفوعاً والموقوف أصح إسناداً . وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي ، كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نبيه قول الله تعالى : ﴿إنما المشركون نجس﴾ وقال عطاء : الحرم كله مسجد لقوله تعالى : ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح «المؤمن لا ينجس» وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم ، وقال أشعث عن الحسن من صافحهم فليتوضأ . رواه ابن جرير .

وقوله ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ قال محمد بن إسحاق وذلك أن الناس قالوا لتقطع عنا الأسواق ولتهلكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق فأنزل الله ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ من وجه غير ذلك ﴿إن شاء﴾ إلى قوله ﴿وهم صاغرون﴾ أي هذا عوض ما تحوfterم من قطع الأسواق فعوضهم الله مما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية ، وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن

جبر وقتادة والضحاك وغيرهم ﴿إن الله عليم﴾ أي بما يصلحكم ﴿حكيم﴾ أي فيما يأمر به وينهى عنه لأنه الكامل في أفعاله وأقواله العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة . وقوله تعالى : ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله . بل لحظوظهم وأهوائهم فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم ، ولهذا قال ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب﴾ وهذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا واستقامة جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى وكان ذلك في سنة تسع ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا معه واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً وتختلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حوها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك في عام جدب ووقت قيط وحر وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وأقام بها قريناً من عشرين يوماً ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى . وقد استدلت بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر وهذا مذهب الشافعي وأحد في المشهور عنه وقال أبو حنيفة رحمه الله . بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب .

وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك ولأخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا والله أعلم . وقوله ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ أي إن لم يسلموا ﴿عن يد﴾ أي عن قهرهم وغلبة ﴿وهم صاغرون﴾ أي ذليلون حقيرون مهانون فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أدلاء صغرة أشقياء كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه» ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائعنا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيها حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا نحبي منها ما كان خططاً للمسلمين وأن لا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار وأن نوسع أبوابها للهارة وابن السبيل وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ولا نكتم غشاً للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركاً ولا ندعو إليه أحداً ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه وأن نقرم المسلمين وأن نقرم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ولا ننشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم لا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمر وأن نحجز مقادير رؤوسنا وأن نلزم زينا حيث كنا وأن نشد الزنانيير على أوساطنا وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا وأن لا نظهر صلينا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج شعانين ولا بعبوتاً ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم . قال فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه ولا يضرب أحداً من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشفاق .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ  
يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَسَلْنَا لَهُمُ اللَّهُ أَن يُوَفَّكَونَ ﴿٢٦﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ  
وَرُهَبَهُمْ أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا  
لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٧﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا في العزيز إنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وذكر السدي وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن العمالة لما غلبت على بني إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقي العزيز يبكي على بني إسرائيل وذهب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه فبينما هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذا امرأة تبكي عند قبر وهي تقول : وامطعما واكاسياه فقال لها : ويحك من كان يطعمك قبل هذا ؟ قالت الله قال : فإن الله حي لا يموت ، قالت يا عزيز فمن كان يعلم العلماء قبل بني إسرائيل ؟ قال : الله . قالت فلم تبكي عليهم ؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصل هناك ركعتين فإنك ستلقى هناك شيخا فما أطعمك فكله فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ فقال له افتح فمك ففتح فمه فالتقى فيه شيئا كهية الجمرية العظيمة ثلاث مرات فرجع عزيز وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال يا بني إسرائيل قد جئتكم بالتوراة فقالوا يا عزيز ما كنت كذابا فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلما وكتب التوراة بأصبعه كلها فلم تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزيز فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال وقابلوها بها فوجدوا ما جاء به صحيحا فقال بعض جهلتهم إنما صنع هذا لأنه ابن الله .

وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر ، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال ﴿ذلك قَوْمٌ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلاقهم ﴿يضاهون﴾ أي يشابهون ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾ أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿فاتلمهم الله﴾ قال ابن عباس لعنهم الله ﴿أنى يؤفكون؟﴾ أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل ؟ وقوله ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانه أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم﴾ روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرأى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأمرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما فرجعت إلى أخيها فرغبت في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ قال : فقلت إنهم لم يعبدوهم فقال «بل إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ «يا عدي ما تقول ؟ أبيضرك أن يقال الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله ما يضرك أبيضرك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلها غير الله ؟» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال «إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون» وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ إنهم اتبعوهم فيها حللوا وحرموها ، وقال السدي : استنصحو الرجال وبنذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ ﴿لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأصداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه .

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي

أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أن يطفئوا نور الله﴾ أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جداهم وافتراءهم فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه وهذا لا سبيل إليه فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه

﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ومنه سمي الليل كافرًا لأنه يستر الأشياء والزارع كافرًا لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال ﴿يعجب الكفار نباته﴾ ثم قال تعالى ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ودين الحق هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة .

﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي على سائر الأديان كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال «إن الله زوى لي الأرض مشارقتها ومغاربها وسيلنج ملك أمتي ما زوى لي منها» ، وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن محمد بن أبي يعقوب سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحي من محارب الصبح فلما صلوا قال شاب منهم سمعت رسول الله ﷺ يقول «إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها في النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة» ، وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثنا سليم بن عامر بن تميم الداري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «ليلغض هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيرًا ويذل ذليلًا ، عزا يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر» فكان تميم الداري يقول قد عرفت ذلك أهل بيتي لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد أصاب من كان كافرًا منهم الذل والصغار والحزبة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم حدثني ابن جابر سمعت سليم بن عامر قال سمعت المقداد بن الأسود يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام يعز عزيرًا ، ويذل ذليلًا أما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها ، وأما يذلهم فيدينون لها» وفي المسند أيضاً حدثنا محمد بن أبي عدي عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبي حذيفة عن عدي بن حاتم سمعه يقول دخلت على رسول الله ﷺ فقال «يا عدي أسلم تسلم» فقلت إني من أهل دين قال «أنا أعلم بدينك منك» فقلت أنت أعلم بديني مني ؟ قال «نعم ألسنت من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك ؟ قلت بلى ! قال «فإن هذا لا يحل لك في دينك» قال فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، قال «أما إني أعلم ما الذي يمنحك من الإسلام ، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب أتعرف الحيرة ؟» قلت لم أرها وقد سمعت بها ؛ قال «فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الطعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت كسرى بن هرمز ؟ قال «نعم كسرى بن هرمز ، وليذلن المال حتى لا يقبله أحد» قال عدي بن حاتم : فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها . وقال مسلم حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرقاشي حدثنا خالد بن الحارث حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن الأسود بن العلاء عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» فقلت يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ الآية ، أن ذلك تام ، قال «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل ، ثم يعث الله ربحاً طيبة فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم» .

﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُفُونَ

أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَبِضُدِّهِ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَشْفِقُونَهَا

فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ

وَوُجُوهُهُمْ هَذَا مَا كَفَرْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾

قال السدي : الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى وهو كما قال فإن الأحبار هم علماء اليهود كما قال تعالى : ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قومهم الإثم وأكلهم السحت﴾ والرهبان عباد النصارى والقسيسون علماءهم كما قال تعالى : ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا﴾ والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى . وفي الحديث الصحيح ولتركين سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة قالوا اليهود والنصارى ؟ قال : «فمن» ؟ وفي رواية فارس والروم ، قال «فمن

الناس إلا هؤلاء؟ والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْكُلُونَ أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأخبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات فأطفأها الله بنور النبوة وسلمهم إياها وعوضهم الذل والصغار وباءوا بغضب من الله تعالى .

وقوله تعالى: ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ويلبسون الحق بالباطل ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وقوله ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ الآية . هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأخبار سوء ورهبانها

وأما الكنز فقال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر هو المال الذي لا تؤدى زكاته ، وروى الثوري وغيره عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : ما أدى زكاته فليس يكثر وإن كان تحت سبع أرضين وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز ، وقد روي هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً ، وقال عمر بن الخطاب نحوه أيما مال أديت زكاته فليس يكثر وإن كان مدفوناً في الأرض ، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض ، وروى البخاري من حديث الزهري عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال ؛ وكذا قال عمر بن العزيز وعراك بن مالك نسخها قوله تعالى : ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الآية .

وقال سعيد بن محمد بن زياد عن أبي أمامة أنه قال : حلية السيوف من الكنز . ما أحدثكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ وقال الثوري عن أبي حصين عن أبي الضحى عن جعدة بن هبيرة عن علي رضي الله عنه قال : أربعة آلاف فما دونها نفقة فما كان أكثر من ذلك فهو كنز وهذا غريب وقد جاء في مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثر منها أحاديث كثيرة . ولتورد منها هنا طرفاً يدل على الباقي قال عبد الرزاق أخبرنا الثوري أخبرني أبو حصين عن أبي الضحى عن جعدة بن هبيرة عن علي رضي الله عنه في قوله ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة﴾ الآية . قال النبي «تبا للذهب تبا للفضة» يقوفاً ثلاثاً قال فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا فأى مال نتخذ ؟ فقال عمر رضي الله عنه أنا أعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا فأى المال نتخذ قال «لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين أحدكم على دينه» .

[حديث آخر] قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبي محمد بن جعفر حدثنا شعبة حدثني سالم بن عبد الله أخبرنا عبد الله بن أبي الهذيل حدثني صاحب لي أن رسول الله ﷺ قال «تبا للذهب والفضة» قال وحدثني صاحبي انه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله قولك «تبا للذهب والفضة» ماذا تدخر ؟ قال رسول الله ﷺ «لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين على الآخرة» .

[حديث آخر] قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان قال : لما نزل في الذهب والفضة ما نزل قالوا فأى المال نتخذ ؟ قال عمر فانا أعلم لكم ذلك فأوضع على يعمر فأدركه وأنا في أثره فقال يا رسول الله أي المال نتخذ ؟ قال «قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة» ورواه الترمذي وابن ماجه من غير وجه عن سالم بن أبي الجعد وقال الترمذي حسن ، وحكي عن البخاري أن سالماً لم يسمعه من ثوبان قلت ولهذا رواه بعضهم عنه مرسل ، والله أعلم .

[حديث آخر] قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا حميد بن مالك حدثنا يحيى بن يعلى المحاربي حدثنا أبي غيلان بن جامع المحاربي عن عثمان بن أبي اليقظان عن جعفر بن أبي إياس عن مجاهد عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة﴾ الآية ، كبر ذلك على المسلمين وقالوا ما يستطيع أحد منا يدع لولده ما لا يبقى بعده فقال عمر : أنا أفرج عنكم فانطلق عمر واتبه ثوبان فأتمى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية . فقال رسول الله ﷺ «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم وإنما فرض الموارث من أموال تبقى بعدكم» قال فكبر عمر ثم قال له النبي ﷺ «ألا أخبرك بخير ما يكثر المرء ؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته» ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه وابن مردويه من حديث يحيى بن يعلى وقال

الحاكم صحيح على شرطها ولم يخرجها .

[حديث آخر] قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية قال كان شداد بن أوس رضي الله عنه في سفر فنزل منزلاً فقال لغلामه ائتنا بالسفرة نعبث بها فانكرت عليه فقال ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتي هذه فلا تحفظوها علي واحفظوا ما أقول لكم سمعت رسول الله ﷺ «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكثروا هؤلاء الكلمات اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن عبادتك وأسألك قلباً سليماً وأسألك لساناً صادقاً وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب» .

وقوله تعالى : ﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ أي يقال لهم هذا الكلام تبيكيتاً وتقريعاً وتهكيتاً كما في قوله ﴿ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم﴾ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴿أي هذا بذك وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم ولهذا يقال من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عذب به وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها كما كان أبو لهب لعنه الله جاهداً في عداوة رسول الله ﷺ وأمراته تعينه في ذلك كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضاً في جيدها أي عنقها جبل من مسد أي تجمع من الحطب في النار وتلقى عليه ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه في الدنيا كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها كانت أضمر الأشياء عليهم في الدار الآخرة فيحمى عليها في نار جهنم وناهيك بحرهما فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم قال سفيان عن الأعمش عن عبد الله بن عمرو بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود : والذي لا إله غيره لا يكوى عبد يكثر فيمس ديناراً ديناراً ولا درهم درهماً ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته ، وقد رواه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً ولا يصح رفعه والله أعلم .

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال بلغني أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعاً يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول : أنا كنزك لا يدرك منه شيئاً إلا أخذه . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول «من ترك بعده كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يتبعه ويقول ويلك ما أنت ؟ فيقول أنا كنزك الذي تركته بعدك ولا يزال يتبعه حتى يلقيه يده فيقضمها ثم يتبعها سائر جسده» ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث يزيد عن سعيد وأصل هذا الحديث في الصحيحين من رواية أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي صحيح مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وذكر تمام الحديث . وقال البخاري في تفسير هذه الآية حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن حصين عن زيد بن وهب قال مررت على أبي ذر بالربذة فقلت ما أنزلك بهذه الأرض ؟

قال كنا بالشام فقرأت ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشربهم بعذاب أليم﴾ فقال معاوية ما هذه فينا ما هذه إلا في أهل الكتاب ، قال قلت إنها لفينا وفيهم ورواه ابن جرير من حديث عبيد بن القاسم عن حصين عن زيد بن وهب عن أبي ذر رضي الله عنه فذكره وزاد فارتفع في ذلك بيني وبينه القول فكتب إلى عثمان يشكوني فكتب إلى عثمان أن أقبل إليه قال فأقبلت إليه فلما قدمت المدينة ركبني الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذ فشكوت ذلك إلى عثمان فقال لي تنح قريباً قلت والله لن أدع ما كنت أقول (قلت) كان من مذهب أبي ذر رضي الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال وكان يقضي بذلك ويحشم عليه ويأمرهم به ويغلظ في خلافه فنهاه معاوية فلم ينته فخشي أن يضر بالناس في هذا فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان وأن يأخذه إليه فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأنزله بالربذة وحده وبها مات رضي الله عنه في خلافة عثمان . وقد اختبره معاوية رضي الله عنه وهو عنده هل يوافق عمله قوله فبعث إليه بألف دينار ففرقتها من يومه ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت فهاهنا الذهب فقال ويحك إنها خرجت ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به وهكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنها عامة وقال السدي هي في أهل القبلة وقال الأحنف بن قيس قدمت المدينة فبينما أنا في حلقة فيها ملا من قريش إذ جاء رجل أحسن الثياب أحسن الجسد أحسن الوجه فقام عليهم فقال : بشر الكنازين برضف يحمى عليه في نار جهنم فيوضع على حلمة تذي أحدهم حتى يخرج من غضض كفه ويوضع على غضض كفه حتى يخرج من حلمة تذي يتزلزل قال فوضع القوم رؤوسهم فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً قال وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم ، فقال إن

هؤلاء لا يعملون شيئاً وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر «ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهباً يمر عليّ ثلاثة أيام وعندني منه شيء إلا دينار أرصده لدين» فهذا والله أعلم هو الذي حدا أبا ذر على القول بهذا .

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة عن سعيد بن أبي الحسن عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه أنه كان مع أبي ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية فجعلت تقضي حوائجه ففضلت معها سبعة فأمرها أن تشتري به فلوساً قال قلت لوالدختره حاجة بيوتك وللضيف ينزل بك قال إن خليلي عهد إليّ أن أئما ذهب أو فضة أو كىء عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله عز وجل . ورواه عن يزيد عن همام وزاد إفرافاً .

وقال الحافظ بن عساكر بسنده إلى أبي بكر الشبلي في ترجمته عن محمد بن مهدي حدثنا عمر بن أبي سلمة عن صدقة بن عبد الله عن طلحة بن زيد عن أبي فروة الزهاوي عن عطاء عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «التي الله فقيراً ، ولا تلقه غنياً» قال يا رسول الله كيف لي بذلك ؟ قال «ما سئلت فلا تمنع ، وما رزقت فلا تحميء» قال يا رسول الله كيف لي بذلك ؟ قال رسول الله ﷺ «هو ذاك وإلا فالنار» إسناده ضعيف .

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا عيينة عن يزيد بن الصرم قال سمعت علياً رضي الله عنه يقول مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين أو درهمين فقال رسول الله ﷺ «كيتان ، صلوا على صاحبكم» وقد روي هذا من طرق أخر ، وقال قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة صدي بن عجلان قال مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال رسول الله ﷺ «كيتان» ثم توفي رجل آخر فوجد في مئزره ديناران فقال رسول الله ﷺ «كيتان» وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الفراءسي حدثنا معاوية بن يحيى الاطراليسي حدثني أروطة حدثني أبو عامر الهوزني سمعت ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال «ما من رجل يموت وعنده أبيض أو أبيض إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يكوى بها من قدمه إلى ذقنه» وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمود بن خدش حدثنا سيف بن محمد الثوري حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «لا يوضع الدينار على الدينار ، ولا الدرهم على الدرهم ولكن يوسع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكفرون» سيف هذا كذاب متروك .

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
 مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا  
 يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾

قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل أخبرنا أيوب أخبرنا محمد بن سيرين عن أبي بكره أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» ثم قال «أي يوم هذا ؟» قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال «أليس يوم النحر ؟» قلنا بلى ثم قال «أي شهر هذا ؟» قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال «أليس ذا الحجة ؟» قلنا بلى ثم سأل «أي بلد هذا ؟» قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : «أليس البلدة ؟» قلنا بلى قال «فإن دماءكم وأموالكم - وأحبسه قال - وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا لا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا هل بلغت ؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه» ورواه البخاري في التفسير وغيره . ومسلم من حديث أيوب عن محمد وهو ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكره عن أبيه ، وقد قال ابن جرير حدثنا معمر حدثنا روح أشعث عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات - ذو القعدة وذو الحجة والمحرم - ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» ورواه البزار عن محمد بن معمر

ثم قال لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه ، وقد رواه ابن عون وقره عن ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكره عن أبيه ، وقال ابن جرير أيضاً حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي حدثنا زيد بن حباب حدثنا موسى بن عبيدة الربذي حدثني صدقة بن يسار عن ابن عمر قال خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمبى في أوسط أيام التشريق فقال

«أما الناس إن الزمان قد استدار فهو اليوم كهيته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان ، وذو القعدة وذو الحجة والمحرّم» وروى ابن مردويه من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار بن عمر مثله أو نحوه وقال حماد بن سلمة حدثني علي بن زيد عن أبي حمزة الرقاشي عن عمه وكانت له صحبة قال كنت أخذاً بزمام ناقة رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق أذود الناس عنه فقال رسول الله ﷺ «ألا إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم» وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله «منها أربعة حرم» قال محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة . وقوله ﷺ في الحديث «إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض» تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه ، وتثبيت للأمر على ما جعله الله ، في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص ، ولا نسيء ولا تبديل كما قال في تحريم مكة «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمه الله تعالى إلى يوم القيامة» وهكذا قال ههنا «إن الزمان قد استدار كهياته يوم خلق الله السموات والأرض» أي الأمر اليوم شرعاً كما ابتدأ الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض .

وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث إن المراد بقوله «قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض» إنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة وأن العرب قد كانت نسأت النسيء فيحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة وفي هذا نظر كما سنبيه إذا تكلمنا عن النسيء وأغرب منه ما رواه الطبراني عن بعض السلف في جملة حديث أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد وهو يوم النحر عام حجة الوداع والله أعلم . [فصل] ذكر الشيخ علم الدين السخاوي في جزء جمعه سماه (الشهور في أساء الأيام والشهور) أن المحرم سمي بذلك لكونه شهراً محرماً ، وعندني أنه سمي بذلك تأكيداً لتحريمه لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاماً وتحرمه عاماً قال ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم ، وصفر سمي بذلك لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار يقال صفر المكان إذا تخلوا ويجمع على أصفار كجمل وأجمال ، وشهر ربيع الأول سمي بذلك لارتباعتهم فيه والارتباع الإقامة في عمارة الربع ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصباء ، وعلى أربعة كرعيف وأرغفة ، وربيع الآخر كالأول . جمادى سمي بذلك لجمود الماء فيه ، قال وكانت الشهور في حسابهم لا تدور ، وفي هذا نظر إذ كانت شهورهم منوطة بالأهله فلا بد من دورانها فلعلهم سموه بذلك أول ما سمي عند جمود الماء في البرد ، كما قال الشاعر :

وليلة من جمادى ذات أندية لا يبصر العبد في ظلماتها الطنبا  
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة حتى يلف على خرطومها الذنبا

ويجمع على جماديات كجباري وجباريات وقد يذكر ويؤنث فيقال جمادى الأولى والأولى وجمادى الآخر والآخر . رجب من الترجيب وهو التعظيم ويجمع على أرجاب ورجاب ورجبات . شعبان من تشعب القبائل وتفرقتها للغارة ويجمع على شعبانين وشعبانات . رمضان من شدة الرمضاء وهو الحر يقال رمضت الفصال إذا عطشت ويجمع على رمضانات ورماضين وأرمضة قال وقول من قال إنه اسم من أساء الله خطأ لا يعرج عليه ولا يلتفت إليه ، قلت قد ورد فيه حديث ولكنه ضعيف وبينته في أول كتاب الصيام . شوال من شالت الإبل بأذنانها للطراق قال ويجمع على شواول وشواويل وشوالات . القعدة بفتح القاف ، قلت وكسرها ، لعودهم فيه عن القتال والترحال ويجمع على ذوات القعدة . الحجة بكسر الحاء قلت وفتحها سمي بذلك لإقامتهم الحج وفيه يجمع على ذوات الحجة ، أساء الأيام أوها الأحد ويجمع على أحاد وأوحد ووحيد ، ثم يوم الاثنين ويجمع على اثنتين ، الثلاثاء بمد ويذكر ويؤنث ويجمع على ثلاثاوات وأثالث ، ثم الأربعاء بالمد ويجمع على أربعاوات وأرباع والخميس يجمع على خمسة وأخماس ثم الجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها أيضاً ويجمع على جمع وجماعات ، السبت مأخوذ من السبت وهو القطع لانتهاء العدد عنده وكانت العرب تسمى الأيام أول ثم أهون ثم جبار ثم دبار ثم مؤنس ثم العروبة ثم شيار ، قال الشاعر من العرب العاربة المتقدمين :

أرجى أن أعيش وإن يسومي بأول أو بأهون أو جبار  
أو التالي دبسار فإن أفته فمؤنس أو عروبة أو شيار

وقوله تعالى : «منها أربعة حرم» فهذا مما كانت العرب أيضاً في الجاهلية تحرمه وهو الذي كان عليه جمهورهم إلا

طائفة منهم يقال لهم البسل كانوا يجرمون من السنة ثمانية أشهر تعميماً وتشديداً ، وأما قوله «ثلاثة متواليت ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم فينبئ ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة ، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد ، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل أشهر الحج شهراً وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويستغلون فيه بأداء المناسك وحرم بعده شهراً آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتبار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً .

وقوله «ذلك الدين القيم» أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق كتاب الله الأول قال تعالى : «فلا تظلموا فيهن أنفسكم» أي في هذه الأشهر المحرمة لأنها أكد وأبلغ في الإثم من غيرها كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى : «ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم» وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام ، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء ، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم ، وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس في قوله «فلا تظلموا فيهن أنفسكم» قال في الشهور كلها ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله «إن عدة الشهور عند الله» الآية ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم في كلهن ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراماً وعظم حرمانهن وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم وقال قتادة في قوله «فلا تظلموا فيهن أنفسكم» إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها ، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء ، وقال إن الله اصطفى صفايا من خلقه . اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً واصطفى من الكلام ذكره ، واصطفى من الأرض المساجد واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم واصطفى من الأيام يوم الجمعة واصطفى من الليالي ليلة القدر فعظموها ما عظم الله . فإنما تعظيم الأمور ما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل وقال الثوري عن قيس بن مسلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية بأن لا تحرموهن كحرمتهن وقال محمد بن إسحاق «فلا تظلموا فيهن أنفسكم» أي لا تجعلوا حرامها حلالاً ولا حلالها حراماً كما فعل أهل الشرك فإنما النسيء الذي كانوا يصنعون من ذلك زيادة في الكفر «يضل به الذين كفروا» الآية ، وهذا القول اختيار ابن جرير .

وقوله «وقاتلوا المشركين كافة» أي جميعكم «كما يقاتلونكم كافة» أي جميعهم «واعلموا أن الله مع المتقين» وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين [أحدهما] وهو الأشهر أنه منسوخ لأنه تعالى قال ههنا «فلا تظلموا فيهن أنفسكم» وأمر بقتال المشركين ، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً ولو كان محرماً في الشهر الحرام لأشرك أن يقيده بانسلاخها ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين أنه خرج إلى هوازن في شوال فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلهم لجنوا إلى الطائف فعمد إلى الطائف فحاصره أربعين يوماً وانصرف ولم يفتحها فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام والقول الآخر أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام» وقال «الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» الآية ؛ وقال «إذا نسلخ الأشهر الحرم فقاتلوا المشركين» الآية ، وقد تقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة لا أشهر التيسير على أحد القولين . وأما قوله تعالى : «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ويكون من باب التهييج والتحضيض أي كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم وقاتلوهم بنظر ما يفعلون ، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداية منهم كما قال تعالى : «الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص» وقال تعالى : «ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم» الآية ، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام فإنه من تمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والنزال فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم ليزلمهم من حصونهم فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة ، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً ، وكان ابتداءه في شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياماً ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء ، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم ، ولنذكر الأحاديث الواردة في ذلك وقد حررنا ذلك في السيرة والله أعلم .

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُواطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سَوْءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة ، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله ، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم ، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر فيحلون الشهر الحرام ويمحرون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة كما قال شاعرهم وهو عمير بن قيس المعروف بجذل الطعان :

لقد عنمت معدّ بأن قومي كرام الناس إن لهم كراما  
ألنا الناسين على معد شهر الحبل نجعلها حراما  
فأي الناس لم ندرك بوتر وأي الناس لم نعلك لجاما

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ قال النسيء أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي الموسم في كل عام وكان يكنى أبا ثمامة فينادي ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب إلا وأن صفر العام الأول العام حلال فيحل له للناس فيحرم صفراً عاماً ويمحرم المحرم عاماً فذلك قول الله ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ يقول يتكون المحرم عاماً و عاماً يحرمونه ، وروى العوفي عن ابن عباس نحوه ، وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول أيها الناس : إني لا أعاب ولا أجاب ولا مرد لما أقول ، إنا قد حرمتنا المحرم وأخرنا صفر . ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ويقول إنا قد حرمتنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله ﴿ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾ قال يعني الأربعة فيحلوا ما حرم الله بتأخير هذا الشهر الحرام ، وروي عن أبي وائل والضحاك وقناة نحو هذا ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية قال هذا رجل من بني كنانة يقال له القلمس وكان في الجاهلية وكانوا في الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض في الشهر الحرام يلقي الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده ، فلما كان هو قال أخرجوا بنا قالوا له هذا المحرم قال ننسئه العام هما العام صفران ، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرمين ، قال ففعل ذلك فلما كان عام قابل قال لا تغزوا في صفر حرموه مع المحرم هما محرمان ، فهذه صفة غريبة في النسيء وفيها نظر لأنهم في عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط وفي العام الذي يليه يحرمون خمسة أشهر فأين هذا من قوله تعالى : ﴿يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُواطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وقد روي عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضاً فقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ الآية ، قال فرض الله عز وجل الحج في ذي الحجة ، قال وكان المشركون يسمون ذا الحجة المحرم وصفر وربيع وربيع وجمادى وجمادى ورجب وشعبان ورمضان وشوالا وذا القعدة وذا الحجة يحجون فيه مرة ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفراً ، ثم يسمون رجب جمادى الآخرة ، ثم يسمون شعبان رمضان ، ثم يسمون شوالا رمضان ، ثم يسمون ذا القعدة شوالا ، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة ، ثم يسمون المحرم ذا الحجة فيحجون فيه واسمه عندهم ذا الحجة . ثم عادوا بمثل هذه الصفة فكانوا يحجون في كل شهر عامين حتى إذا وافق حجة أبي بكر الآخر من العامين في ذي القعدة ، ثم حج النبي ﷺ حجته التي حج فوافق ذا الحجة فذلك حين يقول النبي ﷺ في خطبته «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» وهذا الذي قاله مجاهد فيه نظر أيضاً وكيف تصح حجة أبي بكر وقد وقعت في ذي القعدة وأنى هذا؟

وقد قال الله تعالى : ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ الآية وإنما نودي به في حجة أبي بكر فلم لو تكن في ذي الحجة لما قال تعالى : ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ ولا يلزم من فعلهم النسيء هذا الذي ذكره من دوران السنة عليهم وحجهم في كل شهر عامين فإن النسيء حاصل بدون هذا فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاماً يحرمون عوضه صفراً وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسبأ شهرها ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتروكونه على تحريمه وبعده صفر وربيع وربيع إلى آخرها ﴿فيحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله﴾ أي في تحريم أربعة أشهر من السنة إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من

الثلاثة المتواليه وهو المحرم وتارة ينسونه إلى صفر أي يؤخرونه وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ «إن الزمان قد استدار» الحديث أي إن الأمر في عدة الشهور وتحريم ما هو محرم منها على ما سبق في كتاب الله من العدد والتوالي لا كما تعتمده جهلة العرب من فصلهم تحريم بعضها بالنسيء عن بعض والله اعلم وقال ابن أبي حاتم : حدثنا صالح بن بشر بن سلمة الطبراني حدثنا مكّي بن إبراهيم حدثنا موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه قال : وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال «وإنما النسيء من الشيطان زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً» فكانوا يحرمون المحرم عاماً ويستحلون صفر ويستحلون المحرم وهو النسيء .

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب السيرة كلاماً جيداً مفيداً حسناً فقال : كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل القلمس وهو حذيفة بن عبد قيس بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان : ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد ثم ابنه أمية بن قلع ثم ابنه عوف بن أمية ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف وكان آخرهم وعليه قام الإسلام فكانت العرب إذا فرغت من حجهها اجتمعت إليه فقام فيهم خطيباً فحرم رجياً وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عاماً ويجعل مكانه صفر ويحرمه عاماً ليواطىء عدة ما حرم الله فيحل ما حرم الله يعني ويجرم ما أحل الله والله أعلم .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِيكُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّا نَفِرُوا بَعْدَكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا  
وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا مِّنْكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمارة القيط فقال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله﴾ أي إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿إنما قلتم إلى الأرض﴾ أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟﴾ أي ما لكم فعلتم هكذا رضا منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة ، ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا ، ورغب في الآخرة فقال ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ كما قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالوا حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عن المستورد أخي بني فهر قال : قال رسول الله ﷺ «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بما ترجع؟» وأشار بالسبابة إنفرد بإخراجه مسلم . وروى ابن أبي حاتم حدثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الحمصي بحمص حدثنا الربيع بن روح حدثنا محمد بن خالد الوهبي حدثنا زياد يعني الجصاص عن أبي عثمان قال : قلت يا أبا هريرة سمعت من إخواني بالبصرة أنك تقول سمعت نبي الله ﷺ يقول «إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة» قال أبو هريرة بل سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة» ثم تلا هذه الآية ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل . وقال الثوري عن الأعمش في الآية ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ قال كزاد الراكب .

وقال عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة . قال اتثنوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال أما لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول أف لك من دار إن كان كثيرك لقليل ، وإن كان قليلك لقصير ، وإن كنا منك لفي غرور . ثم توعد تعالى من ترك الجهاد فقال ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ قال ابن عباس : استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتناقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ أي لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالى : ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿ولا تضروه شيئاً﴾ أي ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد ، وتناقلكم عنه ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم ، وقد قيل إن هذه الآية وقوله ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ وقوله ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ انهن منسوخات بقوله تعالى :

﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ روي هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن ، وزيد بن أسلم ورده ابن جرير وقال إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد فتعين عليهم ذلك فلو تركوه لعوقبوا عليه وهذا له اتجاه والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هَمَّا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْفَائِزِينَ اللَّهُ سَكَّنَتْهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى : ﴿إلا تنصروه﴾ أي تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره ﴿إذ أخرجه الذين كفروا ثانيًا﴾ أي عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هاربا صحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم سيروا نحو المدينة فجعل أبو بكر رضي الله عنه يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى رسول الله ﷺ منهم أذى فجعل النبي ﷺ يسكنه ويشته ويقول «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» كما قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام أنبأنا ثابت عن أنس أن أبا بكر حدثه قال : قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال فقال «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» أخرجاه في الصحيحين ، ولهذا قال تعالى : ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ أي تأييده ونصره عليه أي على الرسول ﷺ في أشهر القولين وقيل على أبي بكر ، وروي عن ابن عباس وغيره قالوا لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينته وهذا لا يتنافى بتعدد سكينته خاصة بتلك الحال ولهذا قال ﴿وأيدته بجنود لم تروها﴾ أي الملائكة ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا﴾ قال ابن عباس يعني بكلمة الذين كفروا الشرك وكلمة الله هي لا إله إلا الله . وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وقوله ﴿والله عزيز﴾ أي في انتقامه وانتصاره ، منيع الجباب لا يضام من لاذ ببابه ، واحتسب بالتمسك بخطابه ﴿حكيم﴾ في أقواله وأفعاله .

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

قال سفيان الثوري عن أبيه عن أبي الضحى مسلم بن صبيح : هذه الآية ﴿انفروا خفافا وثقالا﴾ أول ما نزل من سورة براءة وقال معتمر بن سليمان عن أبيه قال : زعم حضرمي أنه ذكر له أن ناسا كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلا وكبيراً فيقول إني لا أتم فأنزل الله ﴿انفروا خفافا وثقالا﴾ الآية أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب وحتم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر فقال ﴿انفروا خفافا وثقالا﴾ .

وقال علي بن زيد عن أنس عن أبي طلحة : كهولاً وشباناً ما سمع الله عذر أحد ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل وفي رواية قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿انفروا خفافا وثقالا﴾ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ فقال أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً جهزوني يا بني ، فقال بنوه يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ومع أبي بكر حتى مات ومع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير دفنوه فيها وهكذا روي عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح والحسن البصري وسهيل بن عطية ومقاتل بن حيان والشعبي وزيد بن أسلم أنهم قالوا في تفسير هذه الآية ﴿انفروا خفافا وثقالا﴾ كهولاً وشباناً وكذا قال عكرمة والضحاك ومقاتل بن حيان وغير واحد ، وقال مجاهد شباناً وشيوخاً وأغنياء ومساكين وكذا قال أبو صالح وغيره وقال الحكم بن عتيبة : مشاعيل وغير مشاعيل ، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿انفروا خفافا وثقالا﴾ يقول انفروا نشاطاً وغير نشاط ، وكذا قال قتادة وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿انفروا خفافا وثقالا﴾ قالوا فإن فينا الثقل ، وذو الحاجة والضيعة والشغل والتيسر به أمره فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا ﴿خفافا وثقالا﴾ أي على ما كان

منهم وقال الحسن بن أبي الحسن البصري أيضاً في العسر واليسر وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية وهذا اختيار ابن جرير .

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر الناس إليها خفافاً وركباناً وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافاً وثقالاً وركباناً ومشاة وهذا تفصيل في المسألة وقد روي عن ابن عباس ومحمد بن كعب وعطاء الخراساني وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله . وقال السدي قوله ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ يقول غنياً وفقيراً وقويماً وضعيفاً فجاءه رجل يومئذ زعموا أنه المقداد وكان عظيماً سميناً فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى فنزلت يومئذ ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس ففسخها الله فقال ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله﴾ .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب حدثنا ابن علية حدثنا أيوب عن محمد قال شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرأ ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا عاماً واحداً قال وكان أبو أيوب يقول قال الله تعالى : ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقیلاً . وقال ابن جرير حدثني سعيد بن عمرو السكوني حدثنا بقیة حدثنا جرير حدثني عبد الرحمن بن ميسرة حدثني أبو راشد الحراني قال وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيافة بحمص وقد فصل عنها من عظمه يريد الغزو فقلت له قد أعذر الله إليك فقال أتت علينا سورة البعث ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ وقال ابن جرير حدثني حيان بن زيد الشرعي قال نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان والياً على حمص قبل الأنسوس إلى الجرامة فرأيت شيخاً كبيراً مما قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت إليه فقلت يا عم لقد أعذر الله إليك قال فرغ حاجبيه فقال يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً ألا إنه من يحبه الله يبتليه ثم يعيده الله فيقبه وإنما يتبلي الله من عباده من شكر وصرير وذكر ولم يعبد إلا الله عز وجل . ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله وبذل المهج في مرضاته ومرضاه رسول الله ﷺ فقال ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة لأنكم تغرمون في النفقة قليلاً فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة كما قال النبي ﷺ ﴿تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة ، لو يردده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة ولهذا قال الله تعالى : ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبي عدي عن حميد عن أنس عن رسول الله ﷺ قال لرجل «أسلم» قال أجدني كارهاً قال «أسلم» وإن كنت كارهاً .

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَّحِلَفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا

مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعداء ولم يكونوا كذلك فقال ﴿لو كان عرضاً قريباً﴾ قال ابن عباس : غنيمة قريبة ﴿وسفراً قاصداً﴾ أي قريباً أيضاً ﴿لاتبعوك﴾ أي لكانوا جاءوا معك لذلك ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أي المسافة إلى الشام ﴿وسيحلفون بالله﴾ أي لكم إذا رجعت إليهم ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أي لو لم يكن لنا أعداء لخرجنا معكم قال الله تعالى : ﴿يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ .

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٣﴾ لَا يَسْتَفِيدُكَ الَّذِينَ

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَفِيدُكَ الَّذِينَ

لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَنَاتٌ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿١٥﴾

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو حصين بن سليمان الرازي حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر عن عون قال هل سمعتم بمعاينة أحسن من هذا ؟ نداء بالعضو قبل المعاينة فقال ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ وكذا قال موريق العجلي وغيره . وقال قتادة عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال ﴿فإذا استأذنتك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم﴾ الآية . وكذا روي عن عطاء الخراساني ، وقال مجاهد نزلت هذه الآية في أناس قالوا استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا ، وهذا قال تعالى : ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾ أي في إبداء الأعدار ﴿وتعلم الكاذبين﴾ يقول تعالى هلا تركتهم لما استأذنتك فلم تأذن لأحد منهم في القعود لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه . ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال ﴿لا يستأذنك﴾ أي في القعود عن الغزو ﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة ولما نههم إليه بادروا وامتلوا ﴿والله عليم بالمتقين﴾ إنما يستأذنك ﴿أي في القعود ممن لا عذر له﴾ الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴿أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم﴾ وارتابت قلوبهم ﴿أي شكت في صحة ما جتتهم به﴾ فهم في ريبهم يترددون ﴿أي يتحبرون يقدمون رجلاً ويؤخرون آخري وليست لهم قدم ثابتة في شيء فهم قوم حيارى هلكت لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن نجد له سبيلاً .

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عِدَّةٌ وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ

وَقِيلَ أَفَعَدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِئَكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا تُصْعِقُوا الَّذِينَ لَكُمْ يُبَغُّونَ كُمْ

الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى : ﴿ولو أرادوا الخروج﴾ أي معك إلى الغزو ﴿لأعدوا له عدة﴾ أي لكانوا تأهبوا به ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ أي أبغض أن يخرجوا معكم قدراً ﴿فثبطهم﴾ أي أخرجهم ﴿وقيل أقدوا مع القاعدتين﴾ أي قدراً ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي لأنهم جنباء مخذولون ﴿ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة﴾ أي وأسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أي مطيعون لهم ومستحسنون لحدثهم وكلامهم يستصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير . وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أي عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم ، وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم بل هذا عام في جميع الأحوال والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين .

وقال محمد بن إسحاق كان الذين استأذنوا فيما بلغني من ذوي الشرف منهم عبد الله بن أبي بن سلول والجد بن قيس وكانوا أشرافاً في قومهم فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده وكان في جنده قوم أهل عجة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم فقال ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال ﴿والله عليم بالظالمين﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، ولهذا قال تعالى : ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا كما قال تعالى ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ وقال تعالى : ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ وقال تعالى : ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تبييناً﴾ وإذا لا تبتاهم من لدنا أجراً عظيماً . ولهديانهم صراطاً مستقيماً . والآيات في هذا كثيرة .

لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونِ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين ﴿لقد ابغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور﴾ أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخضاده مدة طويلة ، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربه يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله بن أبي

وأصحابه هذا أمر قد توجه فدخلوا في الإسلام ظاهراً ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى : ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ .

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَذُنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك يا محمد ﴿اذن لي﴾ في القعود ﴿ولا تفتني﴾ بالخروج معك بسبب الجوارى من نساء الروم . قال الله تعالى : ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا كما قال محمد بن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن قتادة وغيرهم قالوا : قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة ﴿هل لك يا جد العام في جلد بني الأصفر؟﴾ فقال يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال ﴿قد أذنت لك﴾ ففي الجدل بن قيس نزلت هذه : ﴿ومنهم من يقول اذن لي ولا تفتني﴾ الآية ، أي إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم . وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجدل بن قيس ، وقد كان الجدل بن قيس هذا من أشرف بني سلمة . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم «من سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا الجدل بن قيس على أنا نبخله . فقال رسول الله ﷺ «وأي داء أدوا من البخل ! ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور» وقوله تعالى ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافري﴾ أي لا يحيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب .

إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ

فَرِحُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَاسْتَوَكِلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له لأنه مها أصابه من حسنة أي فتح ونصر وظهر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك ﴿وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل﴾ أي قد احتزنا من متابعتنا من قبل هذا ﴿ويتولوا وهم فرحون﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة فقال ﴿قل﴾ أي لهم ﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ أي نحن تحت مشيئته وقدره ﴿هو مولانا﴾ أي سيدنا وملجؤنا ﴿وعلى الله فليستوكل المؤمنون﴾ أي ونحن متوكلون عليه وهو حسينا ونعم الوكيل .

قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بَنَاءً إِلَّا الْإِحْدَى الْحُسَيْنِيَّةَ وَنَحْنُ نَتَرَبِّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ

أَوْ يَأْتِيَنَا قَنْتَرَبِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يَقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ

قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا مَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ

إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى : ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿هل تربصون بنا﴾ أي تنتظرون بنا ﴿إلا إحدى الحسينين﴾ شهادة أو ظفر بكم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ﴿ونحن تربص بكم﴾ أي ننتظر بكم ﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا﴾ أي ننتظر بكم هذا أو هذا إما ﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا﴾ بسبي أو بقتل ﴿فتربصوا إننا معكم متربصون﴾ وقوله تعالى : ﴿قل﴾ أي منها أنفقتم من نفقة طائعين أو مكريين ﴿لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿لأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ أي والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ أي ليس لهم قدم صحيح ولا همة في العمل ﴿ولا ينفقون﴾ نفقة ﴿إلا وهم كارهون﴾ وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن الله لا يمل حتى تملوا وأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً . فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً لأنه إنما يتقبل من المتقين .

فَلَا تَمِجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ وقال ﴿أَلَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ خِزْيَانٌ مِّنَ السَّمَاءِ نَزَّلْنَا بِهِ مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ فَسَالَتْ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ غَلًّا ذَرْوًا وَمَا جُعِلَ إِلَّا لِلنَّاسِ آيَةً﴾ وقال قتادة هذا من المقدم والمؤخر تقديره : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة . واختار ابن جرير قول الحسن ، وهو القول القوي الحسن ، وقوله ﴿وَيَزْهُقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم . عياداً بالله من ذلك وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه .

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنَكُمْ وَمَا هُمْ بِمَنْكُرٌ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَعْتَرِبَةً  
أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلُّوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفرعهم وفرقهم وهلمهم أنهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنَكُمْ﴾ بينما مؤكدة ﴿وما هم منكم﴾ أي في نفس الأمر ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أي فهو الذي حملهم على الخلف ﴿لو يجدون ملجأ﴾ أي حصناً يتحصنون به وحرزاً يتحرزون به ﴿أو مغارات﴾ وهي التي في الجبال ﴿أو مدخلا﴾ وهو السرب في الأرض والنفق قال ذلك في الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقاتدة ﴿لولوا إليه وهم يجمحون﴾ أي يسرعون في ذهابهم عنكم لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة وودوا أنهم لا يخالطونكم ولكن للضرورة أحكام ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة ، فهذا كلبا سر المسلمون ساءهم ذلك فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ولهذا قال ﴿لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون﴾ .

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا  
مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُنَا إِنَّآ إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى : ﴿ومنهم﴾ أي ومن المنافقين ﴿من يلمزك﴾ أي يعيب عليك ﴿في﴾ قسم ﴿الصدقات﴾ إذا فرقتها ويتهمك في ذلك وهم المتهمون المأبونون وهم مع هذا لا ينكرون للدين وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ولهذا ﴿فإن أعطوا من الزكاة رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يستخطون﴾ أي يغضبون لأنفسهم ، قال ابن جرير أخبرني داود بن أبي عاصم قال أتى النبي ﷺ بصدقة قسمها هاهنا وههنا حتى ذهبت قال ووراء رجل من الأنصار فقال ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية ، وقال قتادة في قوله ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ يقول ومنهم من يطعن عليك في الصدقات ، وذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبي ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة فقال يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت فقال نبي الله ﷺ ﴿ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي؟﴾ ثم قال نبي الله ﷺ ﴿احذروا هذا وأشباهه فإن في أمي أشباه هذا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم﴾ وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول ﴿والذي نفسي بيده ما أعطيتكم شيئاً ولا أمنعكموه إنما أنا خازن﴾ . وهذا الذي ذكر قتادة يشبه ما رواه الشيخان من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين فقال له عدل فإنك لم تعدل فقال «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل» ثم قال رسول الله ﷺ «قد رأه مقفياً» إنه يخرج من ضفصيء هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرءون من الدين مروق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قوم تحت أديم السماء» وذكر بقية الحديث ثم قال تعالى منبهاً لهم على ما هو خير لهم من ذلك فقال ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ ، وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتنال أوامره وترك زواجه وتصديق أخباره والاقتفاء بآثاره .

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلُفَةَ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَرَاقِ وَالْفَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦١﴾

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولزهم إياه في قسم الصدقات بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه ولم بكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها هؤلاء المذكورين كما رواه الإمام أبو داود في سننه من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وفيه ضعف عن زياد بن نعيم عن زياد بن الحارث الصدائي رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ فبايعته فأتى رجل فقال أعطني من الصدقة فقال له «إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك» وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع ها أو إلى ما أمكن منها ؟ على قولين [أحدهما] أنه يجب ذلك وهو قول الشافعي وجماعة . [والثاني] أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع إلى واحد منها ويعطي جميع الصدقة مع وجود الباقيين وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران ، قال ابن جرير وهو قول عامة أهل العلم ، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ههنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعاب الإعطاء . ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا والله أعلم ، وإنما قدم الفقراء ههنا على البقية لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور ولشدة فاقتهم وحاجتهم ، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالا من الفقير وهو كما قال أحمد وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن علية أنبأنا ابن عون عن محمد قال : قال عمر رضي الله عنه : الفقير ليس بالذي لا مال له ، ولكن الفقير الأخلق الكسب قال ابن علية الأخلق المحارف عندنا ، والجمهور على خلافه وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن والبصري وابن زيد . واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئا والمسكين هو الذي يسأل ويظوف ويتبع الناس وقال قتادة الفقير من به زمانة والمسكين الصحيح الجسم وقال الثوري عن منصور عن إبراهيم هم فقراء المهاجرين ، قال سفيان الثوري يعني ولا يعطى الأعراب منها شيئا وكذا روي عن سعيد بن جبير وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزي .

وقال عكرمة لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين إنما المساكين أهل الكتاب ولذا ذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية . فأما الفقراء فعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «لا تحمل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي» رواه أحمد وأبو داود والترمذي ، ولأحمد أيضاً والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة مثله وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فقبل فيها البصر فرأهما جليدين فقال «إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب» رواه أحمد وأبو داود والنسائي بإسناد جيد قوي وقال ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل : أبو بكر العبسي قال قرأ عمر رضي الله عنه «إنما الصدقات للفقراء» قال هم أهل الكتاب روى عنه عمر بن نافع سمعت أبي يقول ذلك «قلت» وهذا قول غريب جدا بتقدير صحة الإسناد فإن أبا بكر هذا وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته لكنه في حكم المجهول ، وأما المساكين فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان ، والتمر والتمران قالوا فما المسكين يا رسول الله ؟ قال «الذي لا يجد غني يغنيه ، ولا يظن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئا» رواه الشيخان . وأما العاملون عليها فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطا على ذلك ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب من ربيعة بن الحارث ، أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فقال «إن الصدقة لا تحمل لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس» . وأما المولفة قلوبهم فأنقسام منهم من يعطى ليسلم ، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين ، وقد كان شهدا مشركا ، قال : فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إلي بعد أن كان أبغض الناس إلي ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا زكريا بن عدي أنا ابن المبارك ، عن يونس عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال : أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلي ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي ، ورواه مسلم والترمذي من حديث يونس عن الزهري ، ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه ، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرفهم مائة من الإبل ، وقال «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم» . وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن عليا بعث إلى النبي

بذهبية في تربتها من اليمن ، فقسهما بين أربعة نفر : الأقرع بن حابس ، وعيينة بن بدر ، وعلقمة بن علاثة ، وزيد الخير ، وقال «أنا لفهم» ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه ، ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه ، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد ، ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع ، والله أعلم .

وهل تعطى المؤلف على الإسلام بعد النبي ﷺ ؟ فيه خلاف ، فروي عن عمر وعامر والشعبي وجماعة : أنهم لا يعطون بعده لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم في البلاد ، وأذل لهم رقاب العباد . وقال آخرون : بل يعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن ، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم . وأما الرقاب فروي عن الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهري وابن زيد أنهم المكاتبون ، وروى عن أبي موسى الأشعري نحوه ، وهو قول الشافعي والليث رضي الله عنهما .

وقال ابن عباس والحسن لأبأس أن تمتق الرقبة من الزكاة ، وهو مذهب أحمد ومالك وإسحاق ؛ أي أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً ، وقد ورد في ثواب الاعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة ، وأن الله يمتق بكل عضو منها عضواً من معتقها حتى الفرج بالفرج ، وما ذاك إلا لأن الجزء من جنس العمل «وما تجزون إلا ما كنتم تعلمون» وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال «ثلاثة حق على الله عونهم : الغازي في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والنائح الذي يريد العفان» رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود ، وفي المسند عن البراء بن عازب قال : جاء رجل فقال يا رسول الله دلني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار ؟ فقال «أعتق النسمة وفك الرقبة» فقال : يا رسول الله أوليس واحداً ؟ قال «لا ، عتق النسمة أن تفرد بعقتها ، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها» وأما الغارمون فهم أقسام فمنهم : من تحمل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب فهو لأبى يدفع إليهم ، والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها ، فقال «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» قال : ثم قال : «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداداً من عيش - ورجل أصابته فاقه حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قرابة قومه فيقولون لقد أصابت فلاناً فاقه فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداداً من عيش - فما سواهن من المسألة سحت يأكلها صاحبها سحتاً» رواه مسلم ، وعن أبي سعيد قال : أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه ، فقال النبي ﷺ «تصدقوا عليه» فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه ، فقال النبي ﷺ لغرمائه «خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك» رواه مسلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، أنبأنا صدقة بن موسى عن أبي عمران الجوني عن قيس بن يزيد عن قاضي المصريين عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ «يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه فيقول : يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول يا رب إنك تعلم أني أخذته فلم أكل ولم أشرب ولم أضيع ولكن أتى على يدي إما حرق وإما سرق وإما ضيعة . فيقول الله صدق عبدي أنا أحق من قضى عنك اليوم ، فیدعو الله بشيء يضعه في كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته ، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته» وأما في سبيل الله فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان ، وعند الإمام أحمد والحسن وإسحاق والحج من سبيل الله للحديث ؛ وكذلك ابن السبيل وهو المسافر المحتار في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره ، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال ، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء ، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه . والدليل على ذلك الآية وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة : العامل عليها أو رجل اشتراها بماله ، أو غارم ، أو غازي في سبيل الله ، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغني» وقد رواه السفينان عن زيد بن أسلم عن عطاء مرسلاً ، ولأبي داود عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ «لا تحل الصدق لغني إلا في سبيل الله وابن السبيل أو جار فقير فيهدي لك أو يدعوك» وقوله «فريضة من الله» أي حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه «والله عليم حكيم» أي عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصلح عباده «حكيم» فيما يقوله ويفعله ويشعره ويحكم به ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَسْتَوْلُونَ هُوَ أَذْنُ قُلُوبِهِمْ بِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَتُؤْمِنُونَ بِالْمُرْسَلِينَ وَرَحْمَةٌ

## لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٠﴾

يقول تعالى ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ، ويقولون ﴿هو أذن﴾ أي من قال له شيئاً صدقه فينا ومن حدثه صدقه ، فإذا جثنا وحلفنا له صدقنا . روي معناه عن ابن عباس وبجاهد وقناة . قال الله تعالى : ﴿قل أذن خير لكم﴾ أي هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ أي ويصدق المؤمنين ﴿ورحمة للذين آمنوا منكم﴾ أي وهو حجة على الكافرين ولهذا قال ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ .

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ  
مَنْ يُكَادِرُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ قَاتِلُ لَهُمُ النَّارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١١٢﴾

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿يخلفون بالله ليكم ليرضوكم﴾ الآية . قال ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقاً ، لهم شر من الحمير . قال : فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت أشر من الحمير ، قال : فسعى بها الرجال إلى النبي ﷺ فأخبره ، فأرسل إلى الرجل فدعا فقال «ما حملك على الذي قلت ؟» فجعل يلتنع ويخلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزل الله الآية . وقوله تعالى : ﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله﴾ الآية ، أي ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حد الله عز وجل أي شاقه وحاربه وخالفه ، وكان في حد الله ورسوله في حد ﴿فإن له نار جهنم خالداً فيها﴾ أي مهاناً معذباً ، ﴿وذلك الخزي العظيم﴾ أي وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير .

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا بِآيَاتِ اللَّهِ مُخْرَجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿١١٣﴾

قال مجاهد : يقولون القول بينهم ثم يقولون عسى الله أن يفشي علينا سرنا هذا ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾ ، وقال في هذه الآية ﴿قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون﴾ أي إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم ، كقوله تعالى : ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾ - إلى قوله - ولتعرفنهم في لحن القول﴾ الآية ، ولهذا قال قتادة : كانت تسمى هذه السورة الفاضحة فاضحة المنافقين .

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَمَا يُبِينُهُ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١٤﴾

لَا تَعْتَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٥﴾

قال أبو معشر المدني : عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : قال رجل من المنافقين ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً وأكذبنا ألسنة ، وأجبنا عند اللقاء . فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب . فقال ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ - إلى قوله - كانوا مجرمين ﴿وإن رجله لتسفعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بسيف رسول الله ﷺ . وقال عبد الله بن وهب : أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رجل في غزوة تبوك في مجلس : ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء . فقال رجل في المسجد : كذبت ولكنك مناق لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن ، فقال عبد الله بن عمرو أنا رأيت متعلقاً بحقب ناقه رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة ، وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ورسول الله ﷺ يقول ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ الآية . وقد رواه الليث عن هشام بن سعيد بنحو من هذا .

وقال ابن إسحاق وقد كان جماعة من المنافقين منهم ودیعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف ، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له غثشي بن حمير ، يسرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاذ بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأننا بكم غداً مقرنين في الجبال ، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين فقال غثشي بن حمير : والله لوددت أن أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وإننا نغلب أن ينزل فينا قرآن لمقاتلكم هذه ، وقال رسول الله ﷺ فيما بلغني لعهار بن ياسر «أدرك القوم فإسهم قد احترقوا فأسألهم عما قالوا فإن أنكروا فقل بلى قلتكم كذا وكذا» فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم فاتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه فقال ودیعة بن ثابت ورسول الله ﷺ واقف على راحلته ، فجعل يقول وهو آخذ بحقيبها : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب فقال غثشي بن حمير : يا رسول الله تعد بي اسمي واسم أبي فكان الذي عفي عنه في هذه الآية غثشي بن حمير فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر .

وقال قتادة «ولئن سألتهم يقولون إنما كنا نخوض ونلعب» قال : فبينما النبي ﷺ في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسرون بين يديه ، فقالوا : بظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها هيئات هيئات ؛ فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا ، فقال «عليّ هؤلاء النفر» فدعاهم فقال «قلتكم كذا وكذا» فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب . وقال عكرمة في تفسير هذه الآية : كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول اللهم إني أسمع آية أنا أعنى بها تقشعر منها الجلود وتجل منها القلوب ، اللهم فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفتت أنا دفنت . قال : فأصيب يوم اليمامة فما من أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره . وقوله «لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم» أي بهذا المقال الذي استهزأتم به «إن نغف عن طائفة منكم نغذب طائفة» أي لا يعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم «بأنهم كانوا مجرمين» أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة .

الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَنكِرِ وَيَنْهَوْنَ

عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ  
الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارِجَهْتُمْ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لَهِمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١٨﴾

يقول تعالى منكرأ على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، كان هؤلاء «يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم» أي عن الاتفاق في سبيل الله ، «نساوا الله» أي عاملهم معاملة من نسيهم كقوله تعالى : «فاليوم نساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا» «إن المنافقين هم الفاسقون» أي الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة ، وقوله «وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم» أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم «خالدين فيها» أي ماكثين فيها مخلدين هم والكفار «هي حبسهم» أي كفاتهم في العذاب «ولعنهم الله» أي طردهم وأبعدهم «ولهم عذاب مقيم» .

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِمَخْلَقَتِهِمْ فَاستمتعتم بِمَخْلَقَتِكُمْ

كَمَا استمتع الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخْلَقَتِهِمْ وَخُصْتُمْ كَالَّذِي خَاصُوا أَوْلَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم ، وقوله «بمخلاقهم» قال الحسن : بدنيهم ، وقوله «وخضتم كالذي خاضوا» أي في الكذب والباطل «وأولئك حبطت أعمالهم» أي بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة «في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون» لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب . قال ابن جرير عن عمرو بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس في قوله «كالذين من قبلكم» الآية ، قال ابن عباس : ما أشبه الليلة بالبارحة «كالذين من قبلكم» هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم لا أعلم إلا أنه قال : «والذي نفسي بيده لتبتعنهم

حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه» قال ابن جريج : وأخبرني زياد بن سعد عن محمد بن زياد بن مهاجر عن سعيد عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «والذي نفسي بيده لتبتعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع وابعاء بابع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا : ومن هم يا رسول الله ، أهل الكتاب ؟ قال «فمن ؟» وهكذا رواه أبو معشر عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فذكره ، وزاد قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم القرآن «كالذين من قبلكم» الآية ، قال أبو هريرة : الخلاق الدين «وخضمت كالذي خاضوا» قالوا يا رسول الله كما صنعت فارس والروم ؟ قال «فهل الناس إلا هم ؟» وهذا الحديث له شاهد في الصحيح .

الَّذِينَ نَبَأَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ  
أَنْتَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل ﴿ألم يأتيهم نبأ الذين من قبلهم﴾ أي ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿قوم نوح﴾ وما أصابهم من العرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبد ورسوله نوح عليه السلام ، ﴿وعاد﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً عليه السلام ، ﴿وثمود﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة ، ﴿وقوم إبراهيم﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم عمروذ بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله ، ﴿وأصحاب مدين﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابهم الرجفة وعذاب يوم الظلة ، ﴿والمؤتفكات﴾ قوم لوط وقد كانوا يسكنون في مدائن ، وقال في الآية الأخرى ﴿والمؤتفكة أهوى﴾ أي الأمة المؤتفكة وقيل أم قراهم ، وهي سدوم ، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، ﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالحجج والدلائل القاطعات ، ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ أي بإهلاكه إياهم لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل ، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار .

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ  
الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة ، فقال ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون كما جاء في الصحيح «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه ، وفي الصحيح أيضاً «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وقوله ﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ كقوله تعالى : ﴿ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ الآية ، وقوله ﴿ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ أي يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿ويطيعون الله ورسوله﴾ أي فيما أمر وترك ما عنه زجر ﴿أولئك سيرحمهم الله﴾ أي سيرحمهم الله من اتصف بهذه الصفات ﴿إن الله عزيز﴾ أي يعز من أطاعه فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حكيم﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة ، فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى .

وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ  
وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٨﴾

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الجنات والنعيم المقيم في ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ماكنين فيها أبداً ﴿ومساكن طيبة﴾ أي حسنة البناء طيبة القرار ، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي عمران الجوني عن أبي بكر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ «جتان من ذهب أنتيهما

وما فيها ، وجنتان من فضة آتيتها وما فيها ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» وبه قال ، قال رسول الله ﷺ «إن للمؤمن في الجنة لحيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طوله ستون ميلاً في السماء ! للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضاً» أخرجاه في الصحيحين ، وفيها أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان ، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله أو حبس في أرضه التي ولد فيها» قالوا : يا رسول الله أفلا نخبر الناس ؟ قال «إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألت الله فأسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن» وعند الطبراني والترمذي وابن ماجه من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن معاذ بن جبل رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول فذكر مثله .

وللترمذي عن عبادة بن الصامت مثله وعن أبي حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ «إن أهل الجنة ليقربون الغرف في الجنة كما تقربون الكوكب في السماء» أخرجاه في الصحيحين ، ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكان يقال له الوسيلة لقربه من العرش وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن ليث بن كعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إذا صليت عليّ فسلوا الله لي الوسيلة» قيل يا رسول الله وما الوسيلة ؟ قال «أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو» .

وفي صحيح مسلم من حديث كعب بن علقمة : عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه سمع النبي ﷺ يقول «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ فإنه من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله . وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة» وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن علي الأبار ، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحارثي ، حدثنا موسى بن أعين عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «سلوا الله لي الوسيلة فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة» رواه الطبراني . وفي مسند الإمام أحمد من حديث سعد بن مجاهد الطائي عن أبي المدله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال «لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران . من يدخلها يتعم لا يبأس ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفتى شبابه» وروي عن ابن عمر مرفوعاً نحوه ، وعند الترمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها» فقام أعرابي فقال : يا رسول الله لمن هي ؟ فقال «لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلّى بالليل والناس نيام» ثم قال : حديث غريب ورواه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو وأبي مالك الأشعري كل منهما عن النبي ﷺ بنحوه ، وكل من الإسنادين جيد حسن ، وعنده أن السائل هو أبو مالك الأشعري ، فالله أعلم .

وعن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ «ألا هل من مشمر إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا حظ لها ، هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمره نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سليمة ، وفاكهة وخضرة وحبيرة ونعمة في محلة عالية هبية» قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال : «قولوا إن شاء الله» فقال القوم إن شاء الله ، رواه ابن ماجه . وقوله تعالى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم ، كما قال الإمام مالك رحمه الله عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيتكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» أخرجاه من حديث مالك ، وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي : حدثنا الفضل الرجائي ، حدثنا الفريابي عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله عز وجل هل تشتهون شيئاً فآزيتكم ؟ قالوا يا ربنا ما خير مما أعطيتنا ؟ قال رضواني أكبر» ورواه البزار في مسنده من حديث الثوري ، وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه صفة الجنة : هذا عندي على شرط الصحيح ، والله أعلم .

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنْفِقِينَ وَأَعْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ

مَا قَاتُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ  
مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوُوا بَعْدُ إِنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ

### مِنْ وَبِيِّ وَلَا تَنْصِيرٍ ﴿٦﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة ، وقد تقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾ وسيف لكفار أهل الكتاب ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ وسيف للمنافقين ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾ وسيف للبيعة ﴿فاقتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيف إذا أظهروا النفاق وهو اختيار ابن جرير . وقال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾ قال بيده فإن لم يستطع فليكفره في وجهه . وقال ابن عباس : أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم ، وقال الضحاك : جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم ، وعن مقاتل والربيع مثله ؛ وقال الحسن وقتادة ومجاهد : مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم ، وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال ، والله أعلم . وقوله ﴿يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ قال قتادة : نزلت في عبد الله بن أبي وذلك أنه اقتتل رجلاً جهني وأنصاري فعلا الجهني على الأنصاري ، فقال عبد الله للأنصار ألا تنصروا أحكامي ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فسمي بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يخلف بالله ما قاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية ، وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عقبة قال : فحدثني عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول : حزنت على من أصيب بالحرة من قومي فكتب إلي زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني يذكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار» وشك ابن الفضل في أبناء الأنصار قال ابن الفضل : فسأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم فقال : هو الذي يقول له رسول الله ﷺ «أوفى الله له بإذنه» قال : وذلك حين سمع رجلاً من المنافقين يقول ورسول الله ﷺ يخطب لئن كان صادقاً فحن شر من الحمير ، فقال زيد بن أرقم : فهو والله صادق ولأنت شر من الحمير . ثم رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فحجده القائل فأنزل الله هذه الآية تصديقاً لزيد ، يعني قوله ﴿يخلفون بالله ما قالوا﴾ الآية ، رواه البخاري في صحيحه عن إسماعيل بن أبي أويس عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة - إلى قوله - هذا الذي أوفى الله له بإذنه . ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة ، وقد رواه محمد بن قليح عن موسى بن عقبة بإسناده ثم قال : قال ابن شهاب فذكر ما بعده عن موسى عن ابن شهاب .

والمشهور في هذه القصة أنها كانت في غزوة بني المصطلق فلعل الراوي وهم في ذكر الآية ، وأراد أن يذكر غيرها فذكرها ؛ والله أعلم . قال الأموي في مغازيه : حدثنا محمد بن إسحاق عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده قال : لما قدم رسول الله ﷺ أخذني قومي فقالوا : إنك امرؤ شاعر فإن شئت أن تعتذر إلى رسول الله ﷺ ببعض العلة ثم يكون ذنباً تستغفر الله منه ، وذكر الحديث بطوله إلى أن قال : وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبي ﷺ الجللاس بن سويد بن الصامت ، وكان على أم عمير بن سعد ، وكان عمير في حجره ، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين قال الجللاس : والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول لنحن شر من الحمير ؟ فسمعها عمير بن سعد فقال : والله يا جللاس إنك لأحب الناس إلي وأحسنهم عندي بلاء وأعزهم علي أن يصله شيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن ذكرت لتفضحني ولئن كتبتها لتهلكني ، وإحداهما أهون علي من الأخرى . فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجللاس ، فلما بلغ ذلك الجللاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب علي ، فأنزل الله عز وجل فيه ﴿يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ إلى آخر الآية ، فوقفه رسول الله ﷺ عليها فزعوا أن الجللاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع .

هكذا جاء هذا مدرجاً في الحديث متصلاً به وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه لا من كلام كعب بن مالك ، وقال عروة بن الزبير : نزلت هذه الآية في الجلاس بن سويد بن الصامت ، أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء ، فقال الجلاس : إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن أشرف من حمزنا هذه التي نحن عليها ، فقال مصعب : أما والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت فأتيت النبي ﷺ وخفت أن ينزل في القرآن أو تصيبي قارعة أو أن أخلط بخطيئة ، فقلت : يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبي قارعة ما أخبرتك ، قال : فدعا الجلاس فقال «يا جلاس أقلت الذي قاله مصعب ؟» فحلف فأنزل الله ﷻ «يخلفون بالله ما قالوا» الآية ، وقال محمد بن إسحاق : كان الذي قال تلك المقالة فيما بلغني الجلاس بن سويد بن الصامت فرفعها عليه رجل كان في حجره يقال له عمير بن سعد فأنكرها فحلف بالله ما قالها ، فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته فيما بلغني ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال «إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم - يعني الشيطان - فإذا جاء فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال «علام تشمتني أنت وأصحابك ؟» فانطلق الرجل فجاءه بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم ؛ فأنزل الله عز وجل «يخلفون بالله ما قالوا» الآية ، وقوله «وهو ما لم ينالوا» قيل أنزلت في الجلاس بن سويد وذلك أنه هم يقتل ابن امرأته حين قال لأخبرن رسول الله ﷺ ، وقيل في عبد الله بن أبي ، هم يقتل رسول الله ﷺ ؛ وقال السدي : نزلت في أناس أرادوا أن يتوجهوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ وقد ورد أن نفرًا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك ، في بعض تلك الليالي في حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلاً ، قال الضحاك : ففهم نزلت هذه الآية ، وذلك بين فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة من حديث محمد بن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البخترى عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : كنت أخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقوده وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا بآثني عشر ركباً قد اعترضوه فيها ، قال فأنهت رسول الله ﷺ بهم ، فصرخ بهم فولوا مديرين فقال لنا رسول الله ﷺ «هل عرفتم القوم ؟» قلنا لا يا رسول الله قد كانوا مثلثين ولكننا قد عرفنا الركاب قال «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا ؟» قلنا لا ، قال «أرادوا أن يزاحموا رسول الله في العقبة فيلقوه منها» قلنا يا رسول الله أفلا نبعث إلى عشايرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : «لا ، أكره أن تتحدث العرب بيننا أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم - ثم قال - اللهم ارحمهم بالدبيلة» قلنا يا رسول الله وما الدبيلة ؟ قال «شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك ، وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى : إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد فينبأ رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط مثلثون على الراجل فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ فأقبل عمار رضي الله عنه يضرب وجوه الراجل فقال رسول الله ﷺ «حذيفة قد قد» حتى هبط رسول الله ﷺ فلما هبط نزل ورجع عمار فقال يا عمار «هل عرفت القوم ؟» فقال لقد عرفت عامة الراجل والقوم مثلثون قال «هل تدري ما أرادوا ؟» قال الله ورسوله أعلم قال «أرادوا أن ينفروا برسول الله - ﷺ - راحتله فيطرحوه» قال فسأل عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال أربعة عشر رجلاً فقال إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر قال فعد رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا والله ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم فقال عمار أشهد أن الأثني عشر الباقيين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وهكذا روى ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير نحو هذا ، وأن رسول الله ﷺ أمر أن يمشي الناس في بطن الوادي وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة ، فتبعهم هؤلاء النفر الأذلون وهم مثلثون فأرادوا سلوك العقبة ، فأطلع الله على مرادهم رسول الله ﷺ فأمر حذيفة فرجع إليهم فضرب وجوه رواحلهم ففرغوا ورجعوا مقبوحين ، وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعماراً بأسمائهم وما كانوا هموا به من الفتك به صلوات الله وسلامه عليه وأمرهما أن يكتبنا عليهم ، وكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحاق ، إلا أنه سمي جماعة منهم ، فالله أعلم .

وكذا قد حكى في معجم الطبراني قال البيهقي ، ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم : حدثنا زهير بن حرب حدثنا أبو أحمد الكوفي ، حدثنا الوليد بن جميع ، حدثنا أبو الطفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس ، فقال : أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة ؟ قال : فقال له القوم أخيره إذ سألك ؟ فقال : كنا نخبر أنهم أربعة عشر فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر ، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في

الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم ؟ وقد كان في حرة يشي فقال : إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد ، فوجد قوماً قد سبقوه فلعنهم يومئذ ، وما رواه مسلم أيضاً من حديث قتادة عن أبي نصره عن قيس بن عباد عن عمار بن ياسر قال : أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال «في أصحابي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يمدون رجبها حتى يلج الجمل في سم الخياط : ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة سراج من نار تظهر بين أكتافهم حتى ينجم في صدورهم» ولهذا كان حذيفة يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أي من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره ، والله أعلم ، وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة ، ثم روي عن علي بن عبد العزيز عن الزبير بن بكار أنه قال ؛ هم معتب بن قشيرة ووديع بن ثابت وجد ابن عبد الله بن نبتل بن الحارث من بني عمرو بن عوف والحارث بن يزيد الطائي وأوس بن قيطي والحارث بن سويد وسعد بن زرارة وقيس بن فهد وسويد بن داعم من بني الحنظلي وقيس بن عمرو بن سهل وزيد بن اللصيت وسلالة بن الحمام وهما من بني قينقاع أظهروا الإسلام .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سعاداته ، ولو تمت عليهم السعادة لهذاهم الله لما جاء به كما قال ﷺ «لأنصار» ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فالفكم الله بي ؛ وعالة فأغناكم الله بي ؛ وكما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمن . وهذا الصيغة تقال حيث لا ذنب ، كقوله ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ الآية ، وقوله عليه السلام «ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله» ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال ﴿فَإِنْ يَتُوبَا بِكَ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتُوبَا يَعِذِبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي وإن استمروا على طريقتهم يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا أي بالقتل والهلم والغم ، والآخرة أي بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيراً ولا يدفع عنهم شراً .

﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

بِحُلُوبِهِمْ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا

يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبِ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين ، فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادعى ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقوا الله عز وجل يوم القيامة عياداً بالله من ذلك ، وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصري أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا ، وابن أبي حاتم من حديث معان بن رفاعه عن علي بن يزيد عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، أنه قال لرسول الله ﷺ : ادع الله أن يرزقني مالاً ، قال : فقال رسول الله ﷺ «ويحك يا ثعلبة قليل تؤذي شكره خير من كثير لا تطيقه» قال : ثم قال مرة أخرى فقال «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله - فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت» قال : والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ، فقال رسول الله ﷺ «اللهم ارزق ثعلبة مالاً» قال فاتخذ غنماً فتمت كما ينمي الدود فضاقت عليه المدينة فتتحنى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ، ثم تمت وكثرت فتتحنى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهي تنمي كما ينمي الدود حتى ترك الجمعة ، فطلق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار ، فقال رسول الله ﷺ «ما فعل ثعلبة ؟» فقالوا يا رسول الله اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة ، فأخبروه بأمره ، فقال «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» .

وأُنزل الله جل ثناؤه ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية ؛ ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين رجلاً من جهة ورجلاً من سليم وكتب لها كيف يأخذان الصدقة من المسلمين ، وقال لها «مر بثعلبة وبفلان - رجل من بني سليم - فخذوا صدقاتها» فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ ،

فقال : ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية ما أدري ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ فانطلقا وسمع بها السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبلة فعزها للصدقة ثم استقبلها بها ، فلما رأوها قالوا ما يجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك . فقال بل فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة وإنما هي لله ، فأخذها منه ومرا على الناس فأخذوا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أروني كتابكما فقراه فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي ، فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رأهما قال «يا ويح ثعلبة» قبل أن يكلمهما ودعى للسلمي بالبركة فأخبره بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي ؛ فأنزل الله عز وجل ﴿وممنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾ الآية ، قال وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك فجعل يمشو على رأسه التراب ، فقال له رسول الله ﷺ «هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني» فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله ، فقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئا ، ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه حين استخلف فقال قد علمت منزلتي من رسول الله وموضعي من الأنصار فأقبل صدقتي ؛ فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأبى أن يقبلها ، فقبض أبو بكر ولم يقبلها . فلما ولي عمر رضي الله عنه أتاه فقال : يا أمير المؤمنين أقبل صدقتي فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك ؟ فقبض ولم يقبلها ، فلما ولي عثمان رضي الله عنه أتاه فقال : أقبل صدقتي فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه فهلك ثعلبة في خلافة عثمان ، وقوله تعالى : ﴿عما أخلفوا الله ما وعدوه﴾ الآية ، أي أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم كما في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان» وله شواهد كثيرة ، والله أعلم . وقوله ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾ الآية ، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى ، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهره أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها فإن الله أعلم بهم من أنفسهم ، لأنه تعالى علام الغيوب أي يعلم كل غيب وشهادة وكل سر ونجوى ويعلم ما ظهر وما بطن .

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ

مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

وهذا أيضاً من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبيهم ولمزهم في جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم ، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا هذا مراء ، وإن جاء بشيء يسير قالوا إن الله لغني عن صدقة هذا ؛ كما روى البخاري حدثنا عبيد الله بن سعيد ، حدثنا أبو النعمان البصري ، حدثنا شعبة عن سليمان عن أبي وائل عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا مرأتي ، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله لغني عن صدقة هذا . فنزلت ﴿الذين يلمزون المطوعين﴾ الآية . وقد رواه مسلم أيضاً في صحيحه من حديث شعبة ، وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد الجريري عن أبي السليل قال : وقف علينا رجل في مجلسنا بالبيع فقال : حدثني أبي أو عمي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبيع وهو يقول «من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة» قال : فحللت من عماتي لوثاً أو لوئين وأنا أريد أن أتصدق بها ، فأدركني ما يدرك ابن آدم فقتدت على عماتي ، فجاء رجل لم أر بالبيع رجلاً أشد منه سواداً ولا أصغر منه ولا أذم ، بعبير ساقه لم أر بالبيع ناقة أحسن منها فقال يا رسول الله أصدقة ؟ قال «نعم» قال : دونك هذه الناقة ، قال فلمزه رجل فقال هذا يتصدق بهذ فوالله هي خير منه . قال فسمعها رسول الله ﷺ فقال «كذبت بل هو خير منك ومنها» ثلاث مرات ، ثم قال «ويل لأصحاب المثين من الإبل» ثلاثاً ، قالوا إلا من يا رسول الله ؟ قال «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا» وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله ثم قال «قد أفلح المزهذ المجهد» ثلاثاً . المزهذ في العيش ، المجهد في العبادة ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاء رجل من الأنصار بصاع من طعام ، فقال بعض المنافقين : والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء ، وقالوا إن الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع . وقال العوفي عن ابن عباس إن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس يوماً فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم ، فجمع الناس صدقاتهم ، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر ، فقال يا رسول الله هذا صاع من تمر بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى

نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر ، فأمره رسول الله ﷺ أن يثره في الصدقات ، فسخر منه رجال وقالوا : إن الله ورسوله لغنيان عن هذا وما يصنعون بصاعك من شيء ، ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ هل بقي أحد من أهل الصدقات ؟ فقال رسول الله ﷺ «لم يبق أحد غيرك» فقال له عبد الرحمن بن عوف فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجنون أنت ؟ قال ليس بي جنون ، قال أفعلت ما فعلت ؟ قال : نعم مالي ثمانية آلاف أما أربعة آلاف فأقرضها ربي وأما أربعة آلاف فلي ، فقال له رسول الله ﷺ «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت» ولمزه المنافقون فقالوا والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء وهم كاذبون إنما كان به متطوعاً ، فأنزل الله عز وجل وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر فقال تعالى في كتابه «الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات» الآية ، وكذا روي عن مجاهد وغير واحد ، وقال ابن إسحاق : كان من المطوعين من المؤمنين في الصدقات عبد الرحمن بن عوف تصدق بأربعة آلاف درهم وعاصم بن عدي أخو بني العجلان ، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقة وحض عليها فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف وقام عاصم بن عدي وتصدق بمائة وسق من تمر فلمزوها وقالوا ما هذا إلا رياء ، وكان الذي تصدق بهجده أبو عقيل أخو بني أنيف الأراشي حليف بني عمرو بن عوف ، أتى بصاع من تمر فأقرغه في الصدقة فتضاحكوا به وقالوا إن الله لغني عن صاع أبي عقيل . وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا طلوت بن عباد ، حدثنا أبو عوانة عن عمرو بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً» قال فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال يا رسول الله : عندي أربعة آلاف ، ألفين أقرضها ربي وألفين لعيالي ، فقال رسول الله ﷺ «بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت» ؛ وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر فقال يا رسول الله : أصبت صاعين من تمر صاع أقرضه لربي وصاع لعيالي ، قال فلمزه المنافقون وقالوا ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء ، وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ فأنزل الله «الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم» الآية ، ثم رواه عن أبي كامل عن أبي عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه مرسلًا ، قال ولم يسنده أحد إلا طالوت ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة ، حدثني خالد بن يسار عن ابن أبي عقيل عن أبيه ، قال : بت أجر الجرير على ظهري على صاعين من تمر ، فانقلبت بأحدهما إلى أهلي يتبلغون به وجئت بالآخر أتقرب إلى رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته ، فقال «أنثره في الصدقة» قال فسخر القوم وقالوا لقد كان الله غنيا عن صدقة هذا المسكين ، فأنزل الله «الذين يلمزون المطوعين» الآيتين ، وكذا رواه الطبراني من حديث زيد بن الحباب ، وقال : اسم أبي عقيل حباب ويقال عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة ، وقوله «فيسخرون منهم سخر الله منهم» هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين ، لأن الجزء من جنس العمل فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصار للمؤمنين في الدنيا ، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً لأن الجزء من جنس العمل .

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٨﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، وقد قيل إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم ، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها ، ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها ، وقيل بل لها مفهوم كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال «لما نزلت هذه الآية أسمع ربي قد رخص لي فيهم فوالله لأستغفر لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم» فقال الله من شدة غضبه عليهم «سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم» الآية . وقال الشعبي لما ثقل عبد الله بن أبي انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال إن أبي قد احتضر فأحب أن تشهدته وتصلي عليه فقال له النبي ﷺ «ما أسمك ؟» قال : الحباب بن عبد الله قال «بل أنت عبد الله بن عبد الله إن الحباب اسم شيطان» ، فانطلق معه حتى شهدته وألبسه قميصه وهو عرق وصل عليه فقيل له : أتصلي عليه ؟ فقال «إن الله قال «إن تستغفر لهم سبعين مرة» ولأستغفروا لهم سبعين وسبعين» وكذا روي عن عروة بن الزبير ومجاهد بن جبير وقتادة بن دعامة ورواه ابن جرير بأسانيده .

فَسِرْحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرَهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ لِمُؤْمِنِي أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكِوْا كَثِيرًا ۖ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذاما للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿وكرهوا أن يجاهدوا﴾ معه ﴿بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا﴾ أي بعضهم لبعض ﴿لا تنفروا في الحر﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار ، فلماذا قالوا ﴿لا تنفروا في الحر﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿قل﴾ لهم ﴿نار جهنم﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتمكم ﴿أشد حرا﴾ مما فررتم منه من الحر بل أشد حرا من النار ، ما قال الإمام مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ؟ فقال «فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً» أخرجه في الصحيحين من حديث مالك ، وقال الإمام أحمد : حدثنا سفیان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت في البحر مرتين ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد» وهذا أيضاً إسناد صحيح ، وقد روى الإمام أبو عيسى الترمذي وابن ماجه عن ابن عباس الدوري ، وعن يحيى بن أبي بكير عن شريك عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «أوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة ، حتى اسودت ، فهي سوداء كالليل المظلم» ثم قال الترمذي لا أعلم أحداً رفعه غير يحيى ، وكذا قال ، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه ، عن إبراهيم بن محمد بن محمد بن الحسين بن مكرم عن عبيد الله بن سعيد عن عمه عن شريك وهو ابن عبد الله النخعي . وروى أيضاً ابن مردويه ، من رواية مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس قال : تلا رسول الله ﷺ ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ قال «أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ، وألف عام حتى احمرت ، وألف عام حتى اسودت ، فهي سوداء كالليل لا يضيء لها ، وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث تمام بن نجيع ، وقد اختلف فيه عن الحسن عن أنس رفعه «لو أن شرارة بالشرق - أي من نار جهنم - لوجد حرها من المغرب» وروى الحافظ أبو يعلى ، عن إسحاق بن أبي سرائيل عن أبي عبيدة الخداد عن هشام بن حسان عن محمد بن شبيب عن جعفر بن أبي وحشية عن سعيد بن جبير عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «لو كان في هذا المسجد مائة ألف أوزيدون وفيهم رجل من أهل النار فتنفص فأصابهم نفسه لاحترق المسجد ومن فيه» غريب ، وقال الأعمش عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وشركان من نار جهنم يغلي منها دماغه كما يغلي الرجل ، لا يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه وإنه أهونهم عذاباً» أخرجه في الصحيحين من حديث الأعمش ، وقال مسلم أيضاً : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا يحيى بن أبي كثير ، حدثنا زهير بن محمد عن سهيل بن أبي صالح عن النعمان بن أبي عياض عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال «إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه» ، وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن ابن عجلان ، سمعت أبي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «إن أدنى أهل النار عذاباً رجل يجعل له نعلان يغلي منها دماغه» وهذا إسناد جيد قوي رجاله على شرط مسلم والله أعلم ، والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة ، وقال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿كلا إنها لظى للشوى﴾ وقال تعالى : ﴿يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود وهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾ وقال تعالى ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ وقال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون﴾ أي لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر ليقنوا به من حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم كما قال الآخر :

كالمستجير من الرمضاء بالنار

وقال الآخر :

عمرك بساحمية أفنيته وكان أولى لك أن تتقي  
خوفاً من البارد والحرار  
من المعاصي حذر النار

ثم قال تعالى جل جلاله متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا ﴿فليضحكوا قليلاً﴾ الآية ، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا ، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً ، وكذا قال أبو رزين والحسن وقتادة والربيع بن خثيم وعون العقيلي وزيد بن أسلم ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبي خدّاش ، حدثنا محمد بن جبير عن ابن المبارك عن عمران بن زيد ، حدثنا يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتابكوا فإن أهل النار سيكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون ، فلو أن سفناً أخرجت فيها لجرت» ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش عن يزيد الرقاشي ، وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا : حدثنا محمد بن العباس ، حدثنا حماد الجزري عن زيد بن ربيع رفعه ، قال إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً ثم بكوا القيح زماناً ، قال فتقول لهم الخزنة يا معشر الأشقياء تركتم البكاء في الدار المحروم فيها أهلها في الدنيا هل تجدون اليوم من تستغيثون به ؟ قال فيرفعون أصواتهم يا أهل الجنة يا معشر الآباء والأمهات والأولاد خرجنا من القبور عطاشاً وكنا طول الموقف عطاشاً ونحن اليوم عطاش ، فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، فيدعون أربعين سنة لا يجيبهم ، ثم يجيبهم ﴿إنكم ماكنون﴾ فيياسون من كل خير .

فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ

بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى أمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿فإن رجعتك الله﴾ أي ردك الله من غزوتك هذه ﴿إلى طائفة منهم﴾ قال قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ أي مملك إلى غزوة أخرى ﴿فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً﴾ أي تعزيزاً لهم وعقوبة ، ثم علل ذلك بقوله ﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرة﴾ وهذا كقوله تعالى ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ الآية ، فإن جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، كقوله في عمرة الحديبية ﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ قال ابن عباس : أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة ، وقال قتادة ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ أي مع النساء قال ابن جرير وهذا لا يستقيم لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون ولو أريد النساء لقال فاقعدوا مع الخوالف أو الخالقات ، ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما .

وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَمَاتُوا وَهُمْ فَلْيَسْفُوتَ ﴿٨٧﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات ، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعوه لأنه كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه ، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين كما قال البخاري : حدثنا عبيد بن إسماعيل عن أبي أسامة عن عبيد الله بن نافع عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ «لما خيرني فقال «استغفر لهم أولاً تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ وسأزيده على السبعين» قال إنه منافق . قال فصل عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل آية ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ ، وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي أسامة حماد بن أسامة ، ثم رواه البخاري عن إبراهيم بن المنذر عن أنس بن عياض عن عبيد الله وهو ابن عمر العمري ، وقال فصل عليه وصلينا معه وأنزل الله ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ الآية . وهكذا رواه الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله .

وقد روي من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضاً بنحو من هذا ، فقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي عن ابن إسحاق ، حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس ، قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله

عنه يقول لما توفي عبد الله بن أبي ، دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه ، فقام إليه فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت في صدره فقلت يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القاتل يوم كذا وكذا - يعدد أيامه - ، قال ورسول الله ﷺ يتم ، حتى إذا أكثرت عليه قال «آخر عني يا عمر ، إني خيرت فاخترت ، قد قيل لي ﴿استغفر لهم﴾ الآية . لو أعلم أنني لو زدت على السبعين غفر له لزدت» قال ثم صلى عليه ومشي معه وقام على قبره حتى فرغ منه ، قال فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم . قال فو الله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا﴾ الآية . فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل . وهكذا رواه الترمذي في التفسير من حديث محمد بن إسحاق عن الزهري ، وقال حسن صحيح ، ورواه البخاري عن يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن الزهري به فذكره مثله ، وقال «آخر عني يا عمر» فلما أكثرت عليه قال «إني خيرت فاخترت ولو أعلم أنني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها» قال فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره﴾ الآية ، فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا عبد الملك عن أبي الزبير عن جابر قال : لما مات عبد الله بن أبي أتى ابنه النبي ﷺ فقال يا رسول الله إنك إن لم تأته لم نزل نعيه بهذا ، فأتاه النبي ﷺ فوجده قد أدخل في حفرته فقال «أفلا قبل أن تدخلوه» فأخرج من حفرته وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه وألبسه قميصه ؛ ورواه النسائي عن أبي داود الحراني عن يعلى بن عبيد عن عبد الملك وهو ابن أبي سليمان ؛ وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن عثمان ، أخبرنا ابن عيينة عن عمرو سمع جابر بن عبد الله قال : أتى النبي ﷺ عبد الله بن أبي بعدما أدخل في قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم .

وقد رواه أيضاً في غير موضع مسلم والنسائي من غير وجه ، عن سفيان بن عيينة به . وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا يحيى ، حدثنا مجالد ، حدثنا عامر ، حدثنا جابر حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسي ، حدثنا مجالد عن الشعبي عن جابر قال : لما مات رأس المنافقين قال يحيى بن سعيد بالمدينة فأوصى أن يصلي عليه النبي ﷺ فجاء ابنه إلى النبي ﷺ فقال : إن أبي أوصى أن يكفن بقميصك وهذا الكلام في حديث عبد الرحمن بن مغراء ، قال يحيى في حديثه : فصلى عليه وألبسه قميصه فأنزل الله تعالى ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره﴾ وزاد عبد الرحمن : وخلع النبي ﷺ قميصه فأعطاه إياه ومشي فصلى عليه وقام على قبره ، فأتاه جبريل عليه السلام لما ولى قال ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره﴾ وإسناده لا بأس به وما قبله شاهد له .

وقال الإمام أبو جعفر الطبري : حدثنا أحمد بن إسحاق ، حدثنا أحمد ، حدثنا حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشي عن أنس ، أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلي على عبد الله بن أبي فأخذ جبريل بثوبه وقال ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره﴾ ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده من حديث يزيد الرقاشي وهو ضعيف . وقال قتادة أرسل عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ «أهلكك حب يهود» قال : يا رسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتؤنّبني ، ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه إياه وصلى عليه وقام على قبره ، فأنزل الله عز وجل ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا﴾ الآية ، وقد ذكر بعض السلف أنه إنما كساه قميصه لأن عبد الله بن أبي لما قدم العباس طلب له قميص فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبي لأنه كان ضحياً طويلاً ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له فإله أعلم . ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره ، كما قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي عن أبيه ، حدثني عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعي إلى جنازة سأل عنها ، فإن أتى عليها خيراً قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك قال لأهلها «شأنكم بها» ولم يصل عليها ، وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان لأنه كان يعلم أعيان المنافقين ، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ ، ولهذا كان يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أي من الصحابة .

وقال أبو عبيدة في كتاب الغريب في حديث عمر ، أنه أراد أن يصلي على جنازة رجل فمرزه حذيفة كأنه أراد أن يصدّه عن الصلاة عليها . ثم حكى عن بعضهم أن المرزبلغة أهل اليمامة هو القرص بأطراف الأصابع ، ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم ، كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين

فشرح ذلك ، وفي فعله الأجر الجزيل كما ثبت في الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال «من شهد الجنازة حتى يصلي عليها فله قيراط ، ومن شهدا حتى تدفن فله قيراطان» قيل وما القيراطان ؟ قال «أصغرهما مثل أحد» وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات ، فروى أبو داود : حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي ، أخبرنا هشام عن عبد الله بن بحير عن هاني ، وهو أبو سعيد البريري مولى عثمان بن عفان عن عثمان رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل» انفرد بإخراجه أبو داود رحمه الله .

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَكٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

قد تم تفسير هذه الآية الكريمة والله الحمد والمثنة .

وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِهَا لِلَّهِ وَجَّهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَذْوَاقُ الطُّوَلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ادْرَأْنَا كُنَّ مَعَ الْقٰعِدِينَ

﴿٨٧﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى منكراً ودأماً للمتخلفين عن الجهاد الناكين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول . واستأذنا الرسول في القعود وقالوا ﴿ذرنا نكن مع القاعدين﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء ، وهن الخوالف بعد خروج الجيش ، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس ، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً ، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى ﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾ أي علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن ، وفي الحرب أجبن شيء ، وكما قال الشاعر :  
أفي السلم أعيار أجفا وغلظة  
وفي الحرب أشباه النساء الغوارك ؟

وقال تعالى في الآية الأخرى ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾ الآية ، وقوله ﴿وطبوع على قلوبهم﴾ أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿فهم لا يفقهون﴾ أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه .

لَكِنِ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

لما ذكر تعالى ذنب المنافقين وبين ثناءه على المؤمنين وما لهم في آخرتهم ، فقال ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم ، وقوله ﴿وأولئك لهم الخيرات﴾ أي في الدار الآخرة في جنات الفردوس والدرجات العلى .

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

ثم بين تعالى حال ذوي الأعدار في ترك الجهاد الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة . قال الضحاك عن ابن عباس ، إنه كان يقرأ ﴿وجاء المعذرون﴾ بالتخفيف ويقول هم أهل العذر . وكذا روى ابن عيينة عن حميد عن مجاهد سواء ، قال ابن إسحاق : وبلغني أنهم نفر من بني غفار خفاف بن إيماء بن رخصة ، وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية ، لأنه قال بعد هذا

﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ أي لم يأتوا فيعتذروا ، وقال ابن جريج عن مجاهد ﴿وجاء المعذرون من الأعراب﴾ قال نفر من بني غفار جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله ، وكذا قال الحسن وقتادة ومحمد بن إسحاق والقول الأول أظهر والله أعلم ، لما قدمنا من قوله بعده ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ أي وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الليم فقال ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم﴾ .

لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ  
مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ  
مَأْجِلًا لَكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَعَيْنُهُمْ تَقِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْزًا لَا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى  
الَّذِينَ يَسْتَشِدُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضْوَانًا يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

ثم بين تعالى الأعداء التي لا حرج على من قعد معها عن القتال ، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجهاد في الجهاد ، ومنه العمى والعرج ونحوهما ، ولهذا بدأ به ومنها ما هو عارض بسبب مرض عن له في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب ، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يشطوهم وهم محسنون في حالهم هذا ، ولهذا قال ﴿ما على المحسنين من سبيلٍ والله غفور رحيم﴾ وقال سفيان الثوري عن عبد العزيز بن رفيع عن أبي ثمامة رضي الله عنه قال : قال الخواريون يا روح الله أخبرنا عن الناصح لله ؟ قال الذي يؤثر حق الله على حق الناس ، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة ، بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا .

وقال الأوزاعي : خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ؛ يا معشر من حضر الستم مقرين بالإساءة ؟ قالوا اللهم نعم ، فقال اللهم إنا نسمعك تقول ﴿ما على المحسنين من سبيلٍ﴾ اللهم وقد أقرنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا ، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا ، وقال قتادة نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني ، حدثنا ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي ، حدثنا ابن جابر عن ابن فروة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة ، فإني لو اضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت ﴿ليس على الضعفاء﴾ الآية ، وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية ، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المزني فقالوا : يا رسول الله احملنا فقال لهم «والله لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وهم يبكون وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً . فلما رأى الله حرصهم على محبته وعبية رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال ﴿ليس على الضعفاء﴾ إلى قوله ﴿فهم لا يعلمون﴾ وقال مجاهد في قوله ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ نزلت في بني مقرن من مزينة ، وقال محمد بن كعب : كانوا سبعة نفر من بني عمرو بن عوف سالم بن عوف ، ومن بني واقف حرمي بن عمرو ، ومن بني مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب ويكنى أبا ليلى ، ومن بني المعلى فضل الله ، ومن بني سلمة عمرو بن عتبة وعبد الله بن عمرو المزني ، وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك : ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم الكعاءون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ، من بني عمرو بن عوف سالم بن عمير وعليه بن زيد أخو بني حارثة ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار ، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمة وعبد الله بن المغفل المزني ، وبعض الناس يقول بل هو عبد الله بن عمرو المزني ، وحرمي بن عبد الله أخو بني واقف وعياض بن سارية الفزاري ، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة فقال ﴿لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تقيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون﴾ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن الأودي ، حدثنا وكيع عن الربيع عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ «لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا ولا نلتهم من عدو نيلا إلا وقد شركوكم في الأجر» ثم قرأ ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ الآية ، وأصل الحديث في الصحيحين من حديث أنس ، أن

رسول الله ﷺ قال «إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا ولا سرتهم سيرا إلا وهم معكم» قالوا وهم بالمدينة؟ قال «نعم» حسبهم العذرة، وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «لقد خلفتم بالمدينة رجلا ما قطعتم واديا ولا سلكتكم طريقا إلا شركوكم في الأجر، حسبهم المرض» ورواه مسلم وابن ماجه من طرق عن الأعمش ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرجال «وطيع الله على قلوبهم فهم لا يعملون» .

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَآتَعْتَدِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَهُمْ جَهَنَّمَ جِزَاءً لِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١١٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١١٦﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم «قل لا تعتذروا لن تؤمن لكم» أي لن نصدقكم «قد نبأنا الله من أخباركم» أي قد أعلمنا الله أحوالكم «وسيرى الله عملكم ورسوله» أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا «ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» أي فيخبركم بأعمالكم خيرا وشرها ويعجزكم عليها، ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم فأعرضوا عنهم احتقارا لهم وإنهم رجس أي خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم، وماوهم في آخرتهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون أي من الأثام والخطايا، وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم «فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين» أي الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفارة فويسقة لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها .

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا بَيْنَ قَوْمِهِ وَمَا بَيْنَ بَنِي كَيْدٍ وَالْأَيْمَانِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةً السُّوْيَةِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٨﴾ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٩﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر، أي أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابي والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتربيني . فقال زيد ما يريبك من يدي إنها الشمال؟ فقال الأعرابي والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله «الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله» وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان عن أبي موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن» ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن سفيان الثوري، وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثوري، ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى «وما أرسلنا من قبلك إلا رجلا نوحى إليهم من أهل القرى» ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضي، قال «لقد

هممت أن لا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقيفي أو أنصاري أو دوسي، لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن مكة والطائف والمدينة واليمن، فهم الطيف أحلاقاً من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء.

[حديث الأعرابي في تقبيل الولد] قال حديث مسلم حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالوا: حدثنا أبو أسامة وابن غير عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أنتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم، قالوا: لكنا والله ما نقبل، فقال رسول الله ﷺ: «وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة» وقال ابن غير: «من قلبك الرحمة». وقوله «والله عليم حكيم» أي عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته، وأخبر تعالى أن منهم «من يتخذ ما ينفق» أي في سبيل الله «مغرمًا» أي غرامة وخسارة «ويتربص بكم الدوائر» أي ينتظر بكم الحوادث والأفات «عليهم دائرة السوء» أي هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم «والله سميع عليم» أي سميع لدعاء عباده عليم بمن يستحق النصر من يستحق استئصاله، وقوله «ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول» هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قرابة يتقربون بها عند الله ويتفنون بذلك دعاء الرسول لهم «ألا إنها قرابة لهم» أي ألا إن ذلك حاصل لهم «سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم».

وَأَلَسَّيقُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ

لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠١﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم، قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية، وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة، هم الذين صلوا إلى القبليتين مع رسول الله ﷺ، وقال محمد بن كعب القرظي: مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية، «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار» فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ فقال أبي بن كعب، فقال لا تفارقني حتى أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال نعم. قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ؟ قال نعم. قال لقد كنت أرى أنا رفعتا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبي تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة «وأخريين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم» وفي سورة الحشر «والذين جاءوا من بعدهم» الآية، وفي الأنفال «والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم» الآية، رواه ابن جرير، قال: وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرأها برفع الأنصار عطفًا على السابقين الأولون، فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيأويل من أبغضهم أو سبهم أو ابغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإن الطائفة المخدولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويغضونهم ويسبونهم. عياذا بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عن رضي الله عنه ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله ويعادون من يعادي الله وهم متبعون لا يستعدون ويقتدون ولا يبتدون، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنين.

وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَإِن يَأْتِيَنَّكُم مِّنْهُم مَّوَدَّةٌ فَغُلَّظْكُمْ وَارْمُوا إِلَيْهِمْ ظُرُوقَهُمْ إِنَّهُمْ مُّسَدِّدُونَ

مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٢﴾

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن في أحياء العرب من حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضاً منافقون «مردوا على النفاق» أي مروا واستمروا عليه، ومنه يقال شيطان مريد، ومارد ويقال تمرد فلان على الله أي عتا وتجبر، وقوله «لا تعلمهم نحن نعلمهم» لا ينافي قوله تعالى «ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن

القول ﴿ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها ، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعمين ، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً وإن كان يراه صباحاً ومساءً ، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم عن رجل عن جبير بن مطعم رضي الله عنه ، قال قلت : يا رسول الله إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة فقال ﴿ لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في جحر ثعبن ﴾ وأصغى إلى رسول الله ﷺ برأسه فقال ﴿ إن في أصحابي سناقيين ﴾ ومعناه أنه قد يوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم ، وتقدم في تفسير قوله ﴿ وهما بما لم ينالوا ﴾ أنه ﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر سناً ، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم ، والله أعلم .

وروى الحافظ بن عساكر في ترجمة أبي عمر البيروتي من طريق هشام بن عمار : حدثنا صدقة بن خالد ، حدثنا ابن جابر ، حدثني شيخ بيروت يكنى أبا عمر ، أظنه حدثني عن أبي الدرداء أن رجلاً يقال له حرمة أتى النبي ﷺ فقال : الإيمان ههنا وأشار بيده لسانه ، والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه ، ولم يذكر الله إلا قليلاً ، فقال رسول الله ﷺ ﴿ اللهم اجعل له لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً ، وارزقه حبي وحب من يحبني ، وصير أمره إلى خير ﴾ فقال : يا رسول الله إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأساً فيهم أفلا أتيتك بهم ؟ قال ﴿ من أنا استغفرتنا له ، ومن أصر فإله أولى به ، ولا تخرفن على أحد سترًا ﴾ ، قال وكذا رواه أبو أحمد الحاكم عن أبي بكر الباغندي عن هشام بن عمار ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في هذه الآية أنه قال ما بال أقوام يتكفون علم الناس ، فلان في الجنة وفلان في النار ، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال لا أدري لعمري أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس ، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك ، قال نبي الله نوح عليه السلام ﴿ وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ وقال نبي الله شعيب عليه السلام ﴿ بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ وقال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس في هذه الآية قال : قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال ﴿ اخرج يا فلان فإنك منافق ، واخرج يا فلان فإنك منافق ﴾ فأخرج من المسجد ناساً منهم فضحهم ، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاحتبأ منهم حياءً أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا ، واختبأوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا ، فقال له رجل من المسلمين : أبشر يا عمر قد فضح الله المنافقين اليوم ، قال ابن عباس فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد ، والعذاب الثاني عذاب القبر ، وكذا قال الثوري عن السدي عن أبي مالك نحو هذا .

وقال مجاهد في قوله ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ يعني القتل والسي ، وقال في رواية بالجوع وعذاب القبر ، ثم يردون إلى عذاب عظيم ، وقال ابن جريج عذاب الدنيا وعذاب القبر ثم يردون إلى عذاب عظيم النار ، وقال الحسن البصري عذاب في الدنيا وعذاب في القبر ، وقال عبد الرحمن بن زيد : أما عذاب في الدنيا فالأموال والأولاد ، وقرأ قوله تعالى ﴿ فلا تعجبك أمواتهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ فهذه المصائب لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر ، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ قال النار ، وقال محمد بن إسحاق ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ قال هو فيما بلغني ما هم فيه من أمر الإسلام وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسنة ، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها ، ثم العذاب العظيم الذي يردون إليه عذاب الآخرة والخلد فيه ، وقال سعيد عن قتادة في قوله ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ عذاب الدنيا وعذاب القبر ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ وذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسر إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من المنافقين ، فقال ستة منهم تكفيهم الدبيلة سراج من نار جهنم يأخذ في كنف أحدهم حتى يفضي إلى صدره ، وستة يموتون موتاً ، وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم ، نظر إلى حذيفة فإن صلى عليه وإلا تركه ، وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة أشدك الله أمهم أنا ؟ قال لا ولا أومن منها أحداً بعدك .



وَأَخْرَجُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا أَعْمَالًا صَالِحًا وَأَخْرَسَتِ عَيْنِي اللَّهُ أَنْ تَبُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ۞

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكديباً وشكاً ، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق ، فقال ﴿ وأخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ أي أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم ، وهم أعمال آخر صالحة خلطوا هذه بتلك فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه ، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين ، وقد قال مجاهد : إنها نزلت في أبي لبابة

لما قال لبني قريظة إنه الذبح وأشار بيده إلى حلقه ، وقال ابن عباس ﴿وآخرون﴾ نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فقال بعضهم أبو لبابة وخمسة معه ، وقيل وسبعة معه ، وقيل وتسعة معه ، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسواري المسجد وحلفوا لا يجهلهم إلا رسول الله ﷺ فلما أنزل هذه الآية ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم ، وقال البخاري : حدثنا مؤمل بن هشام ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا عوف ، حدثنا أبو رجاء ، حدثنا سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ لنا «أنا ليلة أتيان فاتعتاني فاتتها بي إلى مدينة مينة بلبن ذهب ولبن فضة فتلقتنا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشر كآقبح ما أنت راء ، قالوا لهم اذهبوا فقموا في ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة ، قالوا لي هذه جنة عدن وهذا منزلك ، قالوا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن. وشرط منهم قبيح ، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم» هكذا رواه البخاري مختصراً في تفسير هذه الآية .

حُدِّثَ مِنْ أَمْرِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا  
أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكئهم بها ، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون ، وإنما كان هذا خاصاً بالرسول ﷺ ، ولهذا احتجوا بقوله تعالى : ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الآية ، وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد ، أبو بكر الصديق وسائر الصحابة وقتلواهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ ، حتى قال الصديق : والله لو منعوني عنقاً - وفي رواية عقلاً - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلتهم على منعه ، وقوله ﴿وصل عليهم﴾ أي ادع لهم واستغفر لهم كما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم فاتاه أبي بصدقة فقال «اللهم صل على آل أبي أوفى» وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت يا رسول الله صل عليّ وعلى زوجي ، فقال «صلى الله عليك وعلى زوجك» وقوله ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾ قرأ بعضهم صلواتك على الجمع وآخرون قرأوا إن صلاتك على الأفراد ﴿سكن لهم﴾ قرأ بعضهم صلواتك على الجمع وآخرون قرأوا إن صلاتك على الأفراد ﴿سكن لهم﴾ قال ابن عباس رحمة لهم ، وقال قتادة وقار ، وقوله ﴿والله سميع﴾ أي لدعائك ﴿عليهم﴾ أي بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له ، قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا أبو العميس عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن لخديفة عن أبيه أن النبي ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته وأصابته ولده وولد ولده ، ثم رواه عن أبي نعيم عن مسعر عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن لخديفة ، قال مسعر : وقد ذكره مرة عن حذيفة إن صلاة النبي ﷺ لتدرك الرجل وولده وولد ولده .

وقوله ﴿لم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات﴾ هذا تبيح إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويححصها ويمحقها ، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه ، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال ، فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيريها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد ، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ كما قال الثوري ووكيع كلاهما عن عباد بن منصور عن القاسم بن محمد ، أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيريها لأحدمكم كما يربي أحدكم مهره ، حتى أن اللقمة لتكون مثل أحد» وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿لم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات﴾ وقوله ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ وقال الثوري والأعمش ، كلاهما عن عبد الله بن السائب عن عبد الله بن أبي قتادة قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، إن الصدقة تقع في يد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل ، ثم قرأ هذه الآية ﴿لم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات﴾ وقد روى ابن عساکر في تاريخه في ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكي الدمشقي وأصله حمصي ، وكان أحد الفقهاء ، روى عن معاوية وغيره ، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكي الحمصي قال : غزا الناس في زمان معاوية رضي الله عنه وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فغل رجل من المسلمين مائة دينار رومية . فلما قتل الجيش ندم وأتى الأمير فأبى أن يقبلها منه وقال : قد تفرق الناس ولبن أقبيلها منك حتى تأتي الله بها يوم القيامة ، فجعل الرجل يستقري الصحابة فيقولون له مثل ذلك ، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها

منه فأبى عليه ، فخرج من عنده وهو يبكي ويسترجع ، فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكي فقال له ما يبكيك ؟ فذكر له أمره ، فقال له أو مطيعي أنت ؟ فقال نعم ، فقال اذهب إلى معاوية فقل له اقبل مني خمسك فادفع إليهم عشرين ديناراً وانظر إلى الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم ، ففعل الرجل ، فقال معاوية رضي الله عنه : لأن أكون أفتيته بها أحب إلي من كل شيء أملكه ، أحسن الرجل .

وَقُلْ أَعْمَلُوا فَيَسِّرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّوكَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦٥﴾

قال مجاهد : هذا وعيد يعني من الله تعالى للمخالفين أو امره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين . وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ وقال تعالى : ﴿يوم تبل السرائر﴾ وقال ﴿وحصل ما في الصدور﴾ وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعاً عن رسول الله ﷺ أنه قال «لو أن أحدكم يعمل في صحرة صباء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان» وقد ورد : أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ ، كما قال أبو داود الطيالسي : حدثنا الصلت بن دينار عن الحسن بن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ «إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم ، فإن كان خيراً استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم ألمهمهم أن يعملوا بطاعتك» وقال الإمام أحمد ، أنبأنا عبد الرزاق عن سفيان عمير سمع أنس يقول : قال النبي ﷺ «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيراً استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا» .

وقال البخاري قالت عائشة رضي الله عنها : إذا أعجبتك حسن عمل امرئ مسلم فقل ﴿اعملوا فيسرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ وقد ورد في الحديث شبيه هذا ، قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا به يحتم له ، فإن العامل يعمل زماناً من عمره أو برهة من دهره يعمل صالح لومات عليه دخل الجنة ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً ، وإن العبد يعمل البرهة من دهره يعمل سيئ لومات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً ، وإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته» قالوا يا رسول الله وكيف يستعمله ؟ قال «يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه» تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه .

وَالْآخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّمَا يَعْزِبُ اللَّهُ whom وَإِنَّمَا تَوْبٌ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿١٦٦﴾

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد : هم الثلاثة الذين خلفوا أي عن التوبة ، وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدعة والحفظ وطيب التبار والظلال لا شكاً ونفاقاً ، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجي هؤلاء عن التوبة ، حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ الآية ، ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ الآية ، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك ، وقوله ﴿إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾ أي هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا وإن شاء فعل بهم ذلك ، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿وإنه عليم حكيم﴾ أي عليم بمن يستحق العقوبة بمن يستحق العفو ، حكيم في أفعاله وأقواله لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ

وَيَلْحِقُونَ إِن أَرَدْنَا إِلَّا آلَ الْحُسَيْنِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٦٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا الْمَسْجِدُ أَشْسَسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ

يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْثُونَ أَنْ يَبْطِغُوهَا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴿١٦٨﴾

سبب نزول هذه الآيات الكريمت ، أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهروهم الله يوم بدر ، شرف اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش ، بمالهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد ، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين ، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فخرج وجهه وكسرت رابعيته اليمنى السفلى وشجع رأسه صلوات الله وسلامه عليه ، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا : لا ننعى الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فثأنته هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال «إنا على سفر ولكن إذا رجعتنا إن شاء الله» فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى . فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية ، هم أناس من الأنصار بنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح فإنني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأتي بجنود من الروم وأخرج عمداً وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعونا بالبركة ، فأنزل الله عز وجل «لا تقم فيه أبداً» إلى قوله «الظالمين» وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء ، وقال محمد بن إسحاق بن يسار ، عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمرو بن قتادة وغيرهم ، قالوا : أقبل رسول الله ﷺ يعني من تبوك حتى نزل بذي أوان بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلية المطيرة والليلية الشاتية ، وإننا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فقال «إني على جناح سفر وحال شغل» أو كما قال رسول الله ﷺ ، ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه» فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ، ومع بن عدي أو أخاه عامر بن عدي أخا بلعجلان فقال «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقا» فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك ابن الدخشم . فقال مالك لعن : أنظرنني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه نارا ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله ، فحرقاها وهدماه وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل «والذين اتخذوا مسجداً ضرراً وكفراً» إلى آخر القصة . وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً : خذام بن خالد من بني عبد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف ، ومن داره أخرج مسجد الشقاق ، وثعلبة بن حاطب من بني عبيد وموالي بني أمية بن زيد ، ومعتب بن قشير من بني ضبيعة بن زيد ، وأبو حبيبة بن الأزعر من بني ضبيعة بن زيد ، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف ، وحارثة بن عامر وابناه جمجم بن حارثة وزيد بن حارثة ونبتل الحارث وهم من بني ضبيعة ومخرج ، وهم من بني ضبيعة ، وبجاد بن عمران وهو من بني ضبيعة ، ووديعة بن ثابت ، وموالي بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر . وقوله «وليلحن» أي الذين بنوه «إن أردنا إلا الحسنى» أي ما أردنا بيننا إلا خيراً ورفقاً بالناس ، قال الله تعالى : «والله يشهد إنهم لكاذبون» أي فيما قصدوا وفيما نوا ، وإنما بنوه ضرراً لمسجد قباء وكفراً بالله وتفرقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وهو أبو عامر الفاسق الذي يقال له الراهب لعنه الله ، وقوله «لا تقم فيه أبداً» هي له ﷺ والأمة تبع له في ذلك عن أن يقوم فيه أي يصلي أبداً . ثم حثه على الصلاة بمسجد

قباة الذي أسس من أول يوم بنيانه على التقوى ، وهي طاعة الله وطاعة رسوله وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلاً وموثلاً للإسلام وأهله ، ولهذا قال تعالى : ﴿مَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباة ، وهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال «صلاة في مسجد قباة كعمرة» ، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباة راكباً وماشيًا ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسس أول قدمه ونزوله على بني عمرو بن عوف كان جبريل هو الذي عين له جهة القبلة ، فالله أعلم .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا معاوية بن هشام عن يونس بن الحارث عن إبراهيم بن أبي ميمونة عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «نزلت هذه الآية في أهل قباة» فيه رجال يجهلون أن يتطهروا» - قال - كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية . ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث يونس بن الحارث وهو ضعيف ، وقال الترمذي غريب من هذا الوجه ، وقال الطبراني : حدثنا الحسن بن علي العمري ، حدثنا محمد بن حميد الرازي ، حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية «فيه رجال يجهلون أن يتطهروا» بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال «ما هذا الظهور الذي أتى الله عليكم ؟» فقال يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا وغسل فرجه أو قال مقعدته ، فقال النبي ﷺ «وهو هذا» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن محمد ، حدثنا أبو أوس ، حدثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة الأنصاري ، أنه حدثه أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباة فقال «إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الظهور في قصة مسجديكم ، فما هذا الظهور الذي تطهرون به ؟» فقالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً ، إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا ، ورواه ابن خزيمة في صحيحه ، وقال هشيم عن عبد الحميد المدني عن إبراهيم بن المعل الأنصاري : أن رسول الله ﷺ قال لعويم بن ساعدة «ما هذا الذي أتى الله عليكم» فيه رجال يجهلون أن يتطهروا ؟» الآية ، قالوا : يا رسول الله إنا نغسل الأدبار بالماء ، وقال ابن جرير : حدثني محمد بن عمار الأسدي ، حدثنا محمد بن سعد عن إبراهيم بن محمد عن شرحبيل بن سعد قال : سمعت خزيمة بن ثابت يقول : نزلت هذه الآية «فيه رجال يجهلون أن يتطهروا والله يحب المطهرين» قالوا كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط .

[حديث آخر] قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا مالك يعني ابن مغول ، سمعت سياراً أبا الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام قال : لقد قدم قدم رسول الله ﷺ يعني قباة ، فقال «إن الله عز وجل قد أتى عليكم في الظهور خيراً أفلا تتخبروني ؟» يعني قوله «فيه رجال يجهلون أن يتطهروا» فقالوا يا رسول الله إنا نجده مكتوباً علينا في التوراة الاستنجاء بالماء .

وقد صرح بأنه مسجد قباة جماعة من السلف ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير ، وقال عطية العوفي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري ونقله البغوي عن سعيد بن جبيرة وقتادة ، وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى ، وهذا صحيح . ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، لأنه إذا كان مسجد قباة قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأخرى ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمي عن عمران بن أبي أنس ، عن سهل بن سعد عن أبي كعب أن النبي ﷺ قال «المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا» تفرد به أحمد .

[حديث آخر] قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا ربيعة بن عثمان التيمي عن عمران بن أبي أنس عن سهل بن سعد الساعدي قال : اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى فقال أحدهما هو مسجد رسول الله ﷺ ، وقال الآخر هو مسجد قباة ، فأتيا النبي ﷺ فسألاه فقال «هو مسجدي هذا» تفرد به أحمد أيضاً .

[حديث آخر] قال الإمام أحمد : حدثنا حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ليث عن عمران بن أبي أنس عن سعيد بن أبي سعيد الخدري قال : غمري رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ، فقال أحدهما هو مسجد قباة ، وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ «هو مسجدي هذا» تفرد به أحمد .

[طريق أخرى] قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا ليث ، حدثني عمران بن أبي أنس عن ابن أبي سعيد عن أبيه أنه قال : غمري رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ، فقال رجل هو مسجد قباة ، وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ «هو مسجدي» وكذا رواه الترمذي والنسائي عن قتيبة عن الليث

وصححه الترمذي ورواه مسلم كما سيأتي .

[طريق أخرى] قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن أنيس بن أبي يحيى ، حدثني أبي قال سمعت أبا سعيد الخدري قال : اختلف رجلان رجل من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن عوف ، في المسجد الذي أسس على التقوى ، فقال الخدري هو مسجد رسول الله ﷺ ، وقال العمري هو مسجد قباء ، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال (هو هذا المسجد) لمسجد رسول الله ﷺ ، وقال في ذلك يعني مسجد قباء .

[طريق أخرى] قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن أنيس ، قال أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا حميد الخراط المدني سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أسس على التقوى ؟ فقال إني أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه في بيت لبعض نسائه فقلت يا رسول الله : أين المسجد الذي أسس على التقوى ؟ قال فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض ثم قال (هو مسجدكم هذا) ثم قال سمعت أباك يذكره ، رواه مسلم منفرداً به عن محمد بن حاتم عن يحيى بن سعيد ، ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره عن حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط ، وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف ، وهو مروى عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب ، واختاره ابن جرير ، وقوله (مسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على أسباب الوضوء والتزهد عن ملابسة القاذورات .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير ، سمعت شيبيا أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ الروم فيها فأوهم فلما انصرف قال (إنه يلبس علينا القرآن إن أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء) ثم رواه من طريقين آخرين عن عبد الملك بن عمير عن شيبان عن أبي روح من ذي الكلاع ، أنه صلى مع النبي ﷺ فذكره ، فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها . وقال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ والله يحب المطهرين ﴾ إن الظهور بالماء لحسن ولكنهم المطهرون من الذنوب . وقال الأعمش التوبة من الذنوب والتطهر من الشرك ، وقد ورد في الحديث المروي من طرق في السنن وغيرها أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء (قد أتى الله عليكم في الطهور فإذا تصنعون ؟) فقالوا نستنجي بالماء ، وقد قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عبد الله بن شيبان ، حدثنا أحمد بن عبد العزيز قال : وجدته في كتاب أبي عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في أهل قباء (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) فسألهم رسول الله ﷺ ، فقالوا إنا نتبع الحجارة بالماء رواه البزار ، ثم قال : تفرد به محمد بن عبد العزيز عن الزهري ولم يرو عنه سوى ابنه ، ﴿ قلت ﴾ وإنما ذكرته بهذا اللفظ لأنه مشهور بين الفقهاء ، ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين أو كلهم ، والله أعلم .

فَمَنْ أَسَسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنَ أَسَسَ بُيُوتَهُ

عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَّهَارِبُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً

فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

يقول تعالى لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ومن بني مسجداً ضاراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وإنما يبني هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار ، أي طرف حفيرة ، مثالة ﴿ في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي لا يصلح عمل المفسدين . قال جابر بن عبد الله : رأيت المسجد الذي بني ضاراً يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ ، وقال ابن جرير : ذكر لنا أن رجلاً حفروا فوجدوا الدخان الذي يخرج منه ، وكذا قال قتادة ، وقال خلف بن ياسين الكوفي : رأيت مسجد المنافقي الذي ذكره الله تعالى في القرآن وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة ، رواه ابن جرير رحمه الله . وقوله تعالى : ﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في

قلوبهم ﴿أي شكاً ونفاقاً﴾ ، بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورتهم نفاقاً في قلوبهم كما أشرب عابِدو العجل حبه ، وقوله ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ أي بموتهم ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم والسدي وحبيب بن أبي ثابت والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف ، ﴿والله عليم﴾ أي بأعمال خلقه ﴿حكيم﴾ في مجازاتهم عنها من خير وشر .

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٣﴾﴾

يجبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوا في سبيله بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبده المطيعين له . ولهذا قال الحسن البصري وقتادة بايعهم والله فأغل ثمهم . وقال شمر بن عطية ما من مسلم إلا والله عز وجل في عنقه بيعة ، وفي بها أومات عليها ثم تلا هذه الآية . ولهذا يقال من حل في سبيل الله بايع الله أي قبل هذا العقد ووفى به . وقال محمد بن كعب القرظي وغيره ، قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال «اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال «الجنة» قالوا : ربح البيع لا تقبل ولا نستقبل ، فنزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية ، وقوله «يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون» أي سواء قتلوا أو قتلوا ، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة . وهذا جاء في الصحيحين وتكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة» وقوله «وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن» تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله في كتبه الكبار ، وهي التوراة المنزلة على موسى ، والإنجيل المنزلة على عيسى ، والقرآن المنزلة على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقوله ﴿ومن أوفى بعهد من الله﴾ فإنه لا يخلف الميعاد . هذا كقوله ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ ﴿ومن أصدق من الله قبلاً﴾ ولهذا قال ﴿فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ أي فليستبشروا من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والتعظيم .

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّاجِدُونَ الْكَافِرُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾

هذا نعت المؤمنين الذين اشتري الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة ﴿التائبون﴾ من الذنوب كلها التاركون للفواحش ﴿العابدون﴾ أي القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهي الأقوال والأفعال ، فمن أخص الأقوال الحمد ، فلهاذا قال ﴿الحامدون﴾ ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع ، وهو المراد بالسياحة ههنا ، ولهذا قال ﴿السائحون﴾ كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى : ﴿سائحات﴾ أي صائمات ، وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة ، ولهذا قال ﴿الراكعون الساجدون﴾ وهم مع ذلك يتفنون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه ، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريره علماً وعملاً ، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق ، ولهذا قال ﴿وبشروا المؤمنين﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله ، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به .

[بيان أن المراد بالسياحة الصيام] قال سفيان الثوري : عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود قال ﴿السائحون﴾ الصائمون ، وكذا روي عن سعيد بن جبير والعمري عن ابن عباس ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كل ما ذكر الله في القرآن السياحة هم الصائمون ، وكذا قال الضحاك رحمه الله ، وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق ، حدثنا

أبو أحمد ، حدثنا إبراهيم بن يزيد عن الوليد بن عبد الله عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : سبحة هذه الأمة الصيام ، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وعبد الرحمن السلمي والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم ، أن المراد بالصائحين الصائمون ، وقال الحسن البصري «السائحون» الصائمون شهر رمضان ، وقال أبو عمرو العبدى «السائحون» الذين يديمون الصيام من المؤمنين ، وقد ورد في حديث مرفوع نحو هذا ، وقال ابن جرير : حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع ، حدثنا حكيم بن حزام ، حدثنا سليمان عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «السائحون هم الصائمون» وهذا الموقوف أصح ، وقال أيضاً حدثني يونس عن ابن وهب عن عمر بن الحارث عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير ، قال سئل النبي ﷺ عن السائحين ، فقال «هم الصائمون» وهذا مرسل جيد وهذا أصح الأقوال وأشهرها .

وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد وهو ما روى أبو داود في سننه من حديث أبي أمامة : أن رجلاً قال يا رسول الله ائذن لي في السياحة ، فقال النبي ﷺ «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة ، أخبرني عمارة بن غزية أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ «أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله والتكبير على كل شرف» وعن عكرمة أنه قال : هم طلبة العلم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المهاجرون ، رواهما ابن أبي حاتم ، وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض والتفرد في شواهد الجبال والكهوف والبراري ، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين ، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال «يوثك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن» وقال العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله «والحافظون لحدود الله» قال لفرائض الله ، وفي رواية القائمون على أمر الله .

مَا كَانُوا لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ  
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ

عَدُوًّا لِلَّهِ تَبَرَّأْنَا مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية ، فقال «أي عم ، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية يا أبا طالب أتترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال أنا على ملة عبد المطلب ، فقال النبي ﷺ «لا تستغفرون لك ما لم أنه عنك» فنزلت «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولىٰ قربىٰ من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم» وقد نزلت فيه «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» أخرجاه . وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ، أخبرنا سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الخليل عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت : أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان ؟ فقال أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين» الآية ، قال لما مات فلا أدري ، قاله سفيان أو قاله إسرائيل أو هو في الحديث لما مات ، قلت : هذا ثابت عن مجاهد أنه قال لما مات . وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا زهير ، حدثنا زبيد بن الحارث اليماني عن محارب بن دينار عن ابن بريدة عن أبيه قال كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر ، فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب ، فصل ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تدرقان ، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال : يا رسول الله مالك ؟ قال «إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي فدمعت عيناها رحمة لها من النار ، وإني كنت تهيتكم عن ثلاث : تهيتكم عن زيارة القبور فزوروها لتذكركم زيارتها خيراً . وتهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث فكلوها وأمسكوا ما شتمتم ، وتهيتكم عن الأشربة في الأوعية فاشربوا في أي وعاء شتمتم ولا تشربوا مسكراً» .

وروى ابن جرير من حديث علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ لما قدم مكة ، أتى رسم قبر فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً ، فقلنا يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت . قال «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي» فما رثي باكياً أكثر من يومئذ . وقال ابن أبي حاتم في تفسيره : حدثنا أبي ، حدثنا خالد بن خدش ، حدثنا عبد الله بن وهب عن ابن جريج عن أيوب بن هانيء عن مسروق عن عبد

الله بن مسعود ، قال : خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها ، فواجه طويلاً ثم بكى فبكينا لبكائه ، ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب فدعاه ثم دعانا ، فقال «ما أبكاكم ؟» فقلنا بكينا لبكائك . قال «إن القبر الذي جلست عنده قبر أمته ، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي» ثم أوردته من وجه آخر ، ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريباً منه ، وفيه «وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي وأنزل علي ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا﴾ الآية ، فأخذني ما يأخذ الولد للوالد ؛ وكنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها فإنها تذكر الآخرة» .

[حديث آخر] في معناه . قال الطبراني : حدثنا محمد بن علي بن المروزي ، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب ، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان ، عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتصر ، فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم ، فذهب فنزل على قبر أمه فناجى ربه طويلاً ، ثم إنه بكى فاشتد بكأؤه وبكى هؤلاء لبكائه ، وقالوا ما بكى نبي الله بهذا المكان إلا وقد أحدث الله في أمته شيئاً لا تطيقه ، فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم فقال «ما يبكيكم ؟» قالوا يا نبي الله بكينا لبكائك ، فقلنا لعله أحدث في أمك شيء لا تطيقه ، قال «ولا ، وقد كان بعضه ، ولكن نزلت على قبر أمي فسألت الله أن يأذن لي في شفاعتها يوم القيامة فأبى الله أن يأذن لي فرحمتها وهي أمي فبكت ، ثم جئني جبريل فقال ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ فتبرأ أنت من أمك كما تبرأ إبراهيم من أبيه ، فرحمتها وهي أمي ودعوت ربي أن يرفع عن أمي أربعاً فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين ؛ ودعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وأن يلبسهم شعراً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وأبى الله أن يرفع عنهم القتل والهرج» وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كداء وكانت عسفان لهم ، وهذا حديث غريب وسياق عجيب ، وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب السابق واللاحق بسند مجهول عن عائشة في حديث فيه قصة ، أن الله أحيا أمه فأمنت ثم عادت ، وكذلك ما رواه السهيلي في الروض بسند فيه جماعة مجهولون : إن الله أحيا له أباه وأمّه فأمن به . وقد قال الحافظ بن دحية في هذا الاستدلال ، بما حاصله أن هذه حياة جديدة كما رجعت الشمس بعد غيوبتها ، فصلى علي العصر ، قال الطحاوي وهو حديث ثابت يعني حديث الشمس ، قال القرطبي : فليس إحياءهما يمتنع عقلاً ولا شرعاً ، قال وقد سمعت أن الله أحيا عمه أبا طالب فأمن به ، (قلت) وهذا كله متوقف على صحة الحديث فإذا صح فلا مانع منه ، والله أعلم .

وقال العمري عن ابن عباس في قوله ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ الآية ، أن النبي ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله عز وجل عن ذلك ، فقال «إن إبراهيم خليل الله قد استغفر لأبيه» فأنزل الله ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ الآية ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية ، كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية ، فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ، ثم أنزل الله ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾ الآية ، وقال قتادة في الآية ، ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا : يا نبي الله إن من آياتنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفي بالذمم أفلا نستغفر لهم ؟ قال : فقال النبي ﷺ «بلى والله إني لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه» فأنزل الله ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ حتى بلغ قوله ﴿البحيم﴾ ثم عذر الله تعالى إبراهيم عليه السلام ، فقال ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾ الآية ، قال : وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال «قد أوحى الله إلي كلمات فدخلن في أذني وقرن في قلبي : أمرت أن لا أستغفر نبي مات مشركاً ، ومن أعطى فضل ماله فهو خير له ، ومن أمسك فهو شر له ، ولا يلوم الله على كفاف» .

وقال الثوري عن الشيباني عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : مات رجل يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه ، فذكر ذلك لابن عباس فقال : فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه ويدعوه بالصلاح ما دام حياً ، فإذا مات وكله إلى شأنه ، ثم قال ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾ إلى قوله - تبرأ منه - لم يدع . ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره عن علي رضي الله عنه ، لما مات أبو طالب قلت يا رسول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات ، قال «أذهب فواره ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني» فذكر تمام الحديث ، وروي أنه ﷺ لما مرت به جنازة عمه أبي طالب قال «وصلتكم رحمة يا عم» وقال عطاء بن أبي رباح : ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ، ولو كانت حيشية حبل من الزنا ، لأنني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين ، يقول الله عز وجل ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ الآية .

وروي ابن جرير ، عن ابن وكيع عن أبيه عن عصمة بن رامل عن أبيه ، قال : سمعت أبا هريرة يقول رحم الله

رجلاً استغفر لأبي هريرة ولأمه ، قلت ولأبيه ؟ قال لا . قال إن أبي مات مشركاً ، وقوله ﴿ فلما تبين له أن عدو الله تباراً منه ﴾ قال ابن عباس : ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما تبين له أنه عدو الله تباراً منه ، وفي رواية لما مات تبين له أنه عدو الله ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم رحمهم الله ، وقال عبيد بن عمير وسعيد بن جبير : إنه يتبرأ منه يوم القيامة حتى يلقي أباه ، وعلى وجه أبيه الفترة والغبرة ، فيقول : يا إبراهيم إني كنت أعصيك وإني اليوم لا أعصيك ، فيقول أي ربي ألم تعدني أن لا تخزني يوم يعثون ، فأني خزيتني من أبي الأبعد ، فيقال انظر إلى ما وراءك فإذا هو بذيخ متلطح ، أي قد مسخ صبغاً ثم يسحب بقوائمه ويلقى في النار . وقوله ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ قال سفيان الثوري وغير واحد : عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود ؛ أنه قال الأواه الدعاء ، وكذا روي من غير وجه : عن ابن مسعود ، وقال ابن جرير : حدثني المثنى ، حدثنا الحجاج بن منهال ، حدثني عبد الحميد بن بهرام ، حدثنا شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد بن الهاد ، قال بينما النبي ﷺ جالس قال رجل يا رسول الله ما الأواه ؟ قال والمتضرع ، قال ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ ورواه ابن أبي حاتم : من حديث ابن المبارك عن عبد الحميد بن بهرام ، ولفظه قال الأواه المتضرع الدعاء . وقال الثوري عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن أبي الغدير ، أنه سأل ابن مسعود عن الأواه فقال هو الرحيم ، وبه قال مجاهد وأبو ميسرة عمر بن شرحبيل والحسن البصري وقتادة وغيرهما أي الرحيم أي بعباد الله .

وقال ابن المبارك عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس ، قال الأواه الموقن بلسان الحبشة ، وكذا قال العوفي عن ابن عباس أنه الموقن ، وكذا قال مجاهد والضحاك ، وقال علي بن أبي طلحة ومجاهد عن ابن عباس : الأواه المؤمن ، زاد علي بن أبي طلحة عنه : هو المؤمن التواب ، وقال العوفي عنه هو المؤمن بلسان الحبشة . وكذا قال ابن جريج هو المؤمن بلسان الحبشة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى ، حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له ذو النجادين «إنه أواه» وذلك أنه رجل كان إذا ذكر الله في القرآن رفع صوته بالدعاء ، ورواه ابن جرير . وقال سعيد بن جبير والشعبي : الأواه المسبح ، وقال ابن وهب عن معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن جبير بن نفيير عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال لا يحافظ على سبحة الضحى إلا الأواه ، وقال شفي بن مائع عن أبي أيوب ، الأواه الذي إذا ذكر خطاياها استغفر منها ، وعن مجاهد الأواه الحفيظ الوجل يذنب الذنب سراً ثم يتوب منه سراً ، ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم رحمه الله . وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا المحاربي عن حجاج عن الحكم عن الحسن بن مسلم بن بيان ؛ أن رجلاً يكثر ذكر الله ويسبح ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال «إنه أواه» .

وقال أيضاً : حدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن هانئ ، حدثنا المنهال بن خليفة عن حجاج بن أرطاة عن عطاء عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ دفن ميتاً فقال «رحمك الله إن كنت لأواهاً» يعني تلاء للقرآن ، وقال شعبة عن أبي يونس الباهلي ، قال سمعت رجلاً بمكة وكان أصله رومياً وكان قاصاً يحدث عن أبي ذر ، قال : كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول في دعائه : أوه أوه فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال «إنه أواه» قال : فخرجت ذات ليلة فإذا رسول الله ﷺ يدفن ذلك الرجل ليلاً ومعه المصباح ؛ هذا حديث غريب رواه ابن جرير . وروي عن كعب الأحبار أنه قال : سمعت ﴿ إن إبراهيم لأواه ﴾ قال كان إذا ذكر النار قال أوه من النار ، وقال ابن جريج عن ابن عباس ﴿ إن إبراهيم لأواه ﴾ قال فقيه . قال الإمام أبو جعفر بن جرير : وأولى الأقوال قول من قال إنه الدعاء وهو المناسب للسياق ، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه ، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليماً عن ظلمه وأناله مكروهاً ، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله ﴿ أراغب أنت عن آهني يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجنك واهجرني ملياً ﴾ قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيماً ، فحلم عنه مع أذاه له ودعا له واستغفر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ .

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل إنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم ، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة ، كما قال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ الآية . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضل

قوماً بعد إذ هداهم ﴿ الآية ، قال بيان الله عز وجل للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة ، وفي بيانه لهم من معصيته وطاعته عامة ، فافعلوا أو ذروا . وقال ابن جرير : يقول الله تعالى وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذا رزقكم الهداية وفقكم للإيمان به وبرسوله ، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتركوا ، فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك بالنهي عنه فلم تضيعوا نبيه إلى ما نهاكم عنه فإنه لا يحكم عليه بالضلال ، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي ، وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه . وقوله تعالى : ﴿ إن الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت ومالك من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ قال ابن جرير هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر ، وأنهم يتقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ولا يرهبوا من أعدائه ، فإنه لا ولي لهم من دون الله ولا نصير لهم سواه ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي ، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء ، حدثنا سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال : بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم «هل تسمعون ما أسمع ؟» قالوا ما نسمع من شيء ، فقال رسول الله ﷺ «إني لأسمع أطيط السماء وما تلام أن تطط وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم» وقال كعب الأحبار : ما من موضع خرم إبرة من الأرض إلا ومملك موكل بها يرفع علم ذلك إلى الله ، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب ، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى غمه مسيرة مائة عام .

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ

يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِمَّنْ هُمْ أَتَتْ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَوُّفٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٧﴾

قال مجاهد وغير واحد : نزلت هذه الآية في غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدية وحر شديد وعسر من الزاد والماء ، قال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك في لحيان الحر على ما يعلم الله من الجهد ، أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان نفر يتداولون التمرة بينهما يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم وأقبلهم من غزوتهم ، وقال ابن جرير : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ؛ أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عتبة بن أبي عتبة عن نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس ، أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة ، فقال عمر بن الخطاب : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد ، فترلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ، فقال «تحب ذلك ؟» قال نعم ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سألت السماء فأهطلت ثم سكنت ، فملأوا ما معهم ثم ذهبنا نظراً فلم نجد ما جاوزت العسكر ، وقال ابن جرير : في قوله ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ أي من النفقة والظهر والزاد والماء ﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي عن الحق ، ويشك في دين الرسول ﷺ ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم ﴿ثم تاب عليهم﴾ يقول ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات عن دينه ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾ .

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ

مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ تُعْرَبُونَ ﴿١٣٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ

الصَّالِحِينَ ﴿١٣٩﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن أخي الزهري محمد بن عبد الله ، عن عمه محمد بن مسلم الزهري أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، أن عبید الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بني حنين عمي ، قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فقال كعب بن

مالك : لم تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزاة تبوك ، غير أنني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عبر قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر ، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يفرها إلا وري بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدواً كثيراً فخل للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، لا يجتمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الشار والظلال وأنا إليها أصغر ، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، فطفقت أعدو لكي أجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئا ، فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتأدى بي حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا وقلت أجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه فعدوت بعد ما صلوا لأجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئا ، ثم عدوت فرجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل ذلك يتأدى بي حتى أسرعوا وتفاطروا الغزو فهممت أن أرمل فألحقهم وليت أنني فعلت ، ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يميزني أنني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً عن عذره الله عز وجل ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك « ما فعل كعب بن مالك » فقال رجل من بني سلمة حبه يا رسول الله برده والنظر في عطفه ، فقال معاذ بن جبل : بشما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً . فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك ، حضر بشي وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادماً ، زاح عني الباطل وعرفت أنني لم أنج منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال لي « تعال » فجلست بين يديه ، فقال لي « ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهراً » فقلت يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعدد ، لقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه إني لأرجو عقيب ذلك من الله عز وجل والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، قال : فقال رسول الله ﷺ « وأما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك » فقام إلي رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت إلا أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، قال فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ، قال ثم قلت لهم هل لقيت معي هذا أحد ؟ قالوا نعم لقيه معك رجلاً قال ما مثل ما قلت ، وقيل لها مثل ما قيل لك ، فقلت فمن هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرآي فيها أسوة ، قال : فعصيت حين ذكروها لي قال ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحبنا فاستكانا وقعدا في بيوتهم يبيكان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد ، وأتى رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي أحرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي ، فإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حافظ أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أنني أحب الله ورسوله ؟ قال فسكت ، قال فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فقال الله ورسوله أعلم .

قال ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنبطي من أنباط الشام بمن قدم

بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك ، قال ففطق الناس يشيرون له إلي حتى جاء فدفع إلي كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً ، فإذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وإن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضیعة ، فالحق بنا نواسك ، قال : فقلت حين قرأته وهذا أيضاً من البلاء ، قال : فتمتت به التنوير فسرته به حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول : يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك ، قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعزلها ولا تقربها ، قال وأرسل إلي صاحبي بمثل ذلك ، قال فقلت لامراتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء ، قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن هلالاً شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ، قال «لا ولكن لا يقربك» قالت وإنه والله ما به من حركة إلى شيء ، وإنه والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، قال فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب .

قال : فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا ، قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت ، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك ، قال : فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا ، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صل الفجر ، فذهب الناس يشيروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إلي رجل فرسا وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يشيرونني نزعته له ثوباً فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أمكث يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أوم رسول الله ﷺ وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنوني بتوبة الله ، يقولون ليتهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس حوله ، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قال : قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال «لا بل من عند الله» قال وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، قال «أسك عليك بعض مالك فهو خير لك» قال : فقلت فإني أسمك سهمي الذي يخير وقلت يا رسول الله إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، قال : فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ما تحمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقي .

(قال) وأنزل الله تعالى : ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم \* يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴿ إلى آخر الآيات . قال كعب : فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ ، أن لا أكون كذبة فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، فقال الله تعالى : ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾ يحلفون لكم لتعرضوا عنهم فإن تعرضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴿ قال : وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فلذلك قال الله عز وجل ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ وليس تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا الذي ذكر ما خلفنا بتخليفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبا الصحيح البخاري ومسلم ، من حديث الزهري بنحوه ، فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها ، وكذا روي عن غير واحد من السلف في تفسيره ، كما رواه الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى : ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ قال : هم كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار ؛ وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدي

وغير واحد وكلهم قال مرارة بن ربيعة ، وكذا في مسلم بن ربيعة في بعض نسخه ، وفي بعضها مرارة بن الربيع ، وفي رواية عن الضحاك مرارة بن الربيع ، كما وقع في الصحيحين وهو الصواب ، وقوله فسموا رجلين شهدا بدرًا قيل إنه خطأ من الزهري ، فإنه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدرًا ، والله أعلم .

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحوًا من خمسين ليلة بأيامها ، وضاعت عليهم أنفسهم وضاعت عليهم الأرض بما رحبت ؛ أي مع سعتها فسدت عليهم المسالك والمذاهب فلا يبتدون ما يصنعون ، فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم ، وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم ، فكان عاقبة صدقهم خيرًا لهم وتوبة عليهم ، ولهذا قال ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ أي اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتتجوا من المهالك ، ويجعل لكم فرجًا من أموركم ومخرجًا ؛ وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ؛ وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا» أخرجاه في الصحيحين ، وقال شعبة عن عمرو بن مرة : سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، اقرءوا إن شئتم ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ هكذا قرأها ، ثم قال فهل تجدون لأحد فيه رخصة ، وعن عبد الله بن عمرو في قوله ﴿اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ قال مع محمد ﷺ وأصحابه ، وقال الضحاك مع أبي بكر وعمر وأصحابها ، وقال الحسن البصري إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا والكف عن أهل الملة .

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ

عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ

الْكَفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا لَأْكَتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب ، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة ، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر لأنهم ﴿لا يصيبهم ظمأٌ وهو العطش﴾ ولا نصب ﴿وهو التعب﴾ ولا مخمصة ﴿وهي المجاعة﴾ ولا يطئون موطئًا يغيب الكفار . أي ينزلون منزلًا يرهب عدوهم ﴿ولا ينالون﴾ منه ظفرًا وغلبة عليه ﴿إلا كتب لهم﴾ هذه الأعمال التي ليست داخله تحت قدرهم وإنما هي ناشئة عن أفعالهم صالحًا وثوابًا جزيلًا ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ كقوله ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ .

وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا لَأْكَتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

يقول تعالى : ولا ينفقون هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾ أي قليلًا ولا كثيرًا ﴿ولا يقطعون واديًا﴾ أي في السير إلى الأعداء ﴿إلا كتب لهم﴾ ولم يقل ههنا به ، لأنها هذه أفعال صادرة عنهم ، ولهذا قال ﴿ليجزيم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ وقد حصل لأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم ، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة ، كما قال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا أبو موسى الغنوي ، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، حدثني سليمان بن المغيرة ، حدثني الوليد بن أبي هشام ، عن فرقد بن أبي طلحة ، عن عبد الرحمن بن حباب السلمي قال : خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العمرة فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه عليٌّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، قال ثم حث ، فقال عثمان : عليٌّ مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها ، قال ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث ، فقال عثمان بن عفان : عليٌّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها . قال

فرايت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يجر كرها ، وأخرج عبد الصمد يده كالمعجب وما على عثمان ما عمل بعد هذا وقال عبد الله أيضاً : حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا ضمرة ، حدثنا عبد الله بن شوذب ، عن عبد الله بن القاسم عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة عن عبد الرحمن بن سمرة ، قال : جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حتى جهز النبي ﷺ جيش العمرة ، قال : فصيها في حجر النبي ﷺ فرايت النبي ﷺ يقبلها بيده ويقول «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم» يرددها مراراً ، وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَقْطُمُونَ وَاذْيَا إِلَّا كَتَبَ لَهُمُ﴾ الآية ، ما ازداد قوم في سبيل الله بعداً من أهليهم إلا ازدادوا قرباً من الله .

﴿ وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَسْئَلَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ

إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفي الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك ، فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفي على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى : ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وقال ﴿وما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب﴾ الآية ، قال ففسخ ذلك هذه الآية . وقد يقال إن هذا بيان لمراعاة تعالى من نفي الأحياء كلها وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم ، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لما كان من أمر العدو ، فيجتمع لهم الأمران في هذا النفي المعين ، وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد ، فإنه فرض كفاية على الأحياء ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ يقول ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً وبتروا النبي ﷺ وحده ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ يعني عصبة يعني السرايا ولا يسيروا إلا بإذنه ، فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ ، وقالوا إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى ، فذلك قوله ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ يقول ليعلموا ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ، ﴿لعلهم يحذرون﴾ وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبي ﷺ ، خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفًا ، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى ، فقال الناس لهم ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجتموننا ؟ فوجدوا في أنفسهم من ذلك تخرجاً وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ ، فقال الله عز وجل ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ يبيغون الخير ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ وليستمعوا ما في الناس وما أنزل الله فعذرهم ﴿ولينذروا قومهم﴾ الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ﴿لعلهم يحذرون﴾ وقال قتادة في الآية : هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش أمرهم الله أن يغزوا بنيه ﷺ ، وتقيم طائفة مع رسول الله تتفقه في الدين ، وتنتقل طائفة تدعو قومها وتحذروهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم .

وقال الضحاك : كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحمل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل الأعدار ، وكان إذا قام وأسرى السرايا لم يحمل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه ، وكان الرجل إذا أسرى فنزل بعده قرآن وتلاه نبي الله ﷺ على أصحابه القاعدين معه ، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ : إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنًا فيقرئهم ويفقههم في الدين ، وهو قوله ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ يقول إذا قام رسول الله ﷺ ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ يعني بذلك أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله ﷺ قاعد ، ولكن إذا قعد نبي الله فسرت السرايا وقعد معه معظم الناس . وقال علي بن أبي طلحة أيضاً عن ابن عباس في الآية . قوله ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ إنها ليست في الجهاد ، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين ، أجديت بلادهم وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها ، حتى يحملوا بالمدينة من الجهد ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون ، فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم ، فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين ، فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم ، فذلك قوله ﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ الآية .

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي ﷺ فيسالونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون في دينهم ، ويقولون للنبي ﷺ ما تأمرنا أن نفعله ؟ وأخبرنا بما تأمر به عشائرتنا إذا قدمنا عليهم ، قال فيأمرهم نبي الله ﷺ بطاعة الله وطاعة رسوله ويعتهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة ، وكانوا إذا أتوا قومهم

قالوا : إن من أسلم فهو منا وينذروهم ، حتى إن الرجل ليفارق أباه ، وأمه ، وكان النبي ﷺ يجبرهم وينذرهم قومهم ، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذروهم النار ويبشرونهم بالجنة ، وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ ﴿وما كان لأهل المدينة﴾ الآية ، قال المنافقون : هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه ، وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم فأنزل الله عز وجل ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ الآية ، ونزلت ﴿والذين يهاجرون في الله من بعد ما استجيب له حجبتهم داخضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾ وقال الحسن البصري في الآية : ليفقهه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً ، فأولاً الأقرب فالأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا ، شرع في قتال أهل الكتاب ، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب ، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال ، وذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام ، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوماً ، فاختره الله لما عنده وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد مال الدين ميلاً كاد أن ينحفل فثبته الله تعالى به ، فوطد القواعد وثبت الدعائم ، ورد شارح الدين وهو راغم ، ورد أهل الردة إلى الإسلام ، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغاة ، وبين الحق لمن جهله ، وأدى عن الرسول ما حمله ، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصليبان ، وإلى الفرس عبدة النيران ، ففتح الله ببركة سفارته البلاد ، وأرغم أنفوس كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد . وأنفق كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله ، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده ، وولي عهده الفاروق الأواب ، شهيد المحراب ، أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين ، وقمع الطغاة والمناققين واستولى على الممالك شرقاً وغرباً . وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً . ففرقها على الوجه الشرعي . والسبيل المرضي . ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً . أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار .

فكسب الإسلام رياسة حلة سابعة . وأمدت في سائر الأقاليم على رقب العباد حجة الله البالغة . فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها . وعلت كلمة الله وظهر دينه . وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها . وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار ، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ وقوله تعالى : ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾ أي وليجدوا الكفار منكم غلظة في قتالكم لهم ، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن غليظاً على عدوه الكافر ، كقوله تعالى : ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين﴾ وقوله تعالى : ﴿ومحمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ وقال تعالى : ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغظ عليهم﴾ وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ قال «أنا الضحوك القتال» يعني أنه ضحوك في وجه وليه قتال هامة عدوه ، وقوله ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه ، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم . ولم تزل الفتوحات كثيرة ولم تزل الأعداء في سفال وخسار ، ثم لما وقعت الفتن والاهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد وتقدموا إليها ، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض ، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة ، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام والله الأمر من قبل ومن بعد ، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه ويقدر ما فيه من ولاية الله . والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم .

وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْتُكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ هَآئِهِمْ فَمَا أَزَادُوا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ

﴿١١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١١٥﴾

يقول تعالى : ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ فمن المنافقين ﴿من يقول أيتكم زادته هذه﴾ أي يقول بعضهم لبعض إيتكم زادته هذه السورة إيماناً قال الله تعالى : ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص ، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء . بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك . وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول شرح البخاري رحمه الله ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي زادتهم شكاً إلى شكهم وريباً إلى ريبهم كما قال تعالى : ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء﴾ الآية ، وقوله تعالى ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالتهم ودمارهم كما أن سيء المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً .

وَأُولَٰئِكَ يَتُوبُونَ أَنَّهُمْ لَمْ يُغْفَرُوا لَهُمْ لَو أَنَّهُمْ هَدُوا ﴿١١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١١٦﴾

مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنَ الْهَيْكَلِ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا وَاصْرِفْ عَنْ قُلُوبِهِمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

﴿١١٧﴾ لَا يَفْقَهُونَ

يقول تعالى أو لا يرى هؤلاء المنافقون ﴿أنهم يفتنون﴾ أي يختبرون ﴿في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ أي لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ولا هم يذكرون فيها يستقبل من أحوالهم قال مجاهد يختبرون بالسنة والجوع وقال قتادة بالغزو في السنة مرة أو مرتين ، وقال شريك عن جابر عن الجعفي عن أبي الضحى عن حذيفة في قوله ﴿أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ قال كنا نسعم في كل عام كذبة أو كذبتين فيضل بها فئام من الناس كثير رواه ابن جرير وفي الحديث عن أنس : لا يزداد الأمر إلا شدة ولا يزداد الناس إلا شحاً وما من عام إلا والذي بعده شر منه . سمعته من نبيكم ﷺ وقوله ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ أي تلفتوا ﴿هل يراكم من أحد ثم انصرفوا﴾ أي تولوا عن الحق وانصرفوا عنه وهذا حالهم في الدنيا لا يبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى : ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ كأنهم حمر مستفزة فرت من قسورة ﴿وقوله تعالى : ﴿فما للذين كفروا قبلك مهطعين﴾ عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ أي ما هؤلاء القوم يتفللون عنك يمينا وشمالاً هروباً من الحق وذهاباً إلى الباطل وقوله ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾ كقوله ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي لا يفهمون عن الله خطابه ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه بل هم في شغل عنه ونفور منه فلماذا صاروا إلى ما صاروا إليه .

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ

رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١١٨﴾

يقول تعالى تمتاً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم أي من جنسهم وعل لفتهم كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ وقال تعالى : ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ وقال تعالى : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ أي منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته وذكر الحديث وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ قال لم يصبه

شيء من ولادة الجاهلية وقال ﷺ «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح» وقد وصل هذا من وجه آخر كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي في كتابه الفاصل بين الراوي والواعي : حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد حدثنا ابن أبي عمر حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال : أشهد على أبي لحدثني عن أبيه عن جده عن علي قال : قال رسول الله ﷺ «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ولم يمسي من سفاح الجاهلية شيء» وقوله تعالى : «عزيز عليه ما عتم» أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال «بعثت بالحنيفة السمحة» وفي الصحيح «إن هذا الدين يسر وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه» «حريص عليكم» أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم ، وقال الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا سفيان بن عيينة عن قطن عن أبي الطفيل عن أبي ذر قال : تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً قال وقال رسول الله ﷺ «ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم» وقال الإمام أحمد : حدثنا قطن حدثنا المسعودي عن الحسن بن سعد عن عبدة المهذلي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع ألا وإني أخذ بحجزكم أن تهاوتوا في النار كتهافت الفراش أو الذباب» . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ «أناه ملكان فيما يرى النائم فقعدهما عند رجله والأخر عند رأسه . فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه اضرب مثل هذا ومثل أمته فقال : إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال : رأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء تتبعوني ؟ فقالوا نعم قال فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم ألم ألكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني ؟ فقالوا بلى فقال : فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني فقالت طائفة صدق والله لتتبعنه ، وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه ، وقال البزار حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالوا حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان حدثنا أبي عن عكرمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه في شيء قال عكرمة أراه قال في دم فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً ثم قال «أحسن إليك» قال الأعرابي لا ولا أجملت فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه فأشار رسول الله ﷺ إليهم أن كفوا فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابي إلى البيت فقال «إنك إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت» فزاده رسول الله ﷺ شيئاً وقال «أحسن إليك ؟» فقال الأعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . قال النبي ﷺ «إنك جئتنا فسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت . وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم» فقال نعم : فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ «إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال ، وإنا قد دعوانا فأعطيناه فزعم أنه قد رضي ، كذلك يا أعرابي ؟» فقال الأعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال النبي ﷺ «إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً . فقال لهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها فتوجه إليها وأخذ لها من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها وإني لو أطعتمك حيث قال ما قال لدخل النار» رواه البزار ثم قال لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه (قلت) وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان والله أعلم ، وقوله «بالمؤمنين رءوف رحيم» كقولهم «واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين» فإن عصوك قال إني بريء مما تعملون \* وتوكل على العزيز الرحيم» وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى «فإن تولوا» أي تولوا عما جثمهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة «فقل حسبي الله لا إله إلا هو» أي الله كافي لا إله إلا هو عليه توكلت كما قال تعالى : «رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً» «وهو رب العرش العظيم» أي هو مالك كل شيء وخالقه لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيها وما بينها تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شيء وقدره نافذ في كل شيء وهو على كل شيء وكيل ، قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا بشر بن عمر حدثنا شعبة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي بن كعب قال : آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» إلى آخر السورة ، وقال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا عبد المؤمن حدثنا عمر بن شقيق حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية

عن أبي بن كعب رضي الله عنهم أنهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر رضي الله عنه فكان رجال يكتبون ويعلي عليهم أبي بن كعب فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾ الآية فظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن فقال لهم أبي بن كعب إن رسول الله ﷺ أقراني بعدها آيتين ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ إلى آخر السورة قال هذا آخر ما نزل من القرآن فحتم بما فتح به بالله الذي لا إله إلا هو وهو قول الله تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ وهذا غريب أيضاً .

وقال أحمد حدثنا علي بن بحر حدثنا علي بن محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ إلى عمر بن الخطاب فقال من معك على هذا ؟ قال لا أدري والله إني لأشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها فقال عمر وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ثم قال لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فضعوها فيها فوضعوها في آخر براءة ، وقد تقدم الكلام أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق رضي الله عنها بجمع القرآن فأمر زيد بن ثابت فجمعه وكان عمر يحضهم وهم يكتبون ذلك ، وفي الصحيح أن زيداً قال فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمه بن ثابت أو أبي خزيمه ؛ وقد قدما أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عند رسول الله ﷺ كما قال خزيمه بن ثابت حين ابتدأهم بها والله أعلم ، وقد روى أبو داود عن يزيد بن محمد عن عبد الرزاق بن عمر - وقال كان من ثقات المسلمين من المتعبدين عن مدرك بن سعد قال يزيد شيخ ثقة عن يونس بن ميسرة عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . سبع مرات إلا كفاه الله ما أهمه ، وقد رواه ابن عساکر في ترجمة عبد الرزاق عن عمر هذا من رواية أبي زرعة الدمشقي عنه عن أبي سعد مدرك بن أبي سعد الفزاري عن يونس بن ميسرة بن حليس عن أم الدرداء سمعت أبا الدرداء يقول : ما من عبد يقول حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات صادقاً كان بها أو كاذباً إلا كفاه الله ما أهمه . وهذه زيادة غريبة ، ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمد عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق عن جده عبد الرزاق بن عمر بسنده فرفعه فذكر مثله بالزيادة وهذا منكر ، والله أعلم .

آخر تفسير سورة براءة والله الحمد والمنة



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّكَ ؕ أَيُّدُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا

أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة ، وقال أبو الضحى عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿الر﴾ أي أنا الله أرى . وكذلك قال الضحاك وغيره ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين وقال مجاهد ﴿الر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ وقال الحسن التوراة والزبور ، وقال قتادة ﴿تلك آيات الكتاب﴾ قال الكتب التي كانت قبل القرآن . وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه . وقوله ﴿أكان للناس عجباً﴾ الآية . يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار ومن إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم ﴿أبشر يهودنا﴾ وقال هود وصالح لقومهما ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾ وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾ وقال الضحاك عن ابن عباس لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكروا الله فقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد قال فأنزل الله عز وجل ﴿أكان للناس عجباً﴾ الآية . وقوله ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ اختلفوا فيه فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق﴾ يقول سبقت لهم السعادة في الذكر الأول وقال العوفي عن ابن